الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
٢٨

سيرة ذاتية

جوزيه ساراماجو

الذكريات الصغيرة

ترجمة : أحمد عبد اللطيف

جوزيه ساراماجو كاتب برتغالى
[illegible]
[illegible]

عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تمامًا.

أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧، ورغم الاحتفاء النقدى بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عامًا.

أصدر بعدها نحو عشرين كتابًا جعلته واحدًا من أهم الكتاب فى البرتغال منها "عام موت ريكاردوس"، "العمى"، "كل الأسماء"، "الطوف الحجرى".

حصل على جائزة نادى القلم الدولى، وجائزة كاموس البرتغالية، قبل أن تتوج جوائزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٨.

جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨

الذكريات الصغيرة

سارماجو ، جوزيه
الذكريات الصغيرة / جوزيه سارماجو ؛ ترجمة أحمد عبد اللطيف. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
١٩٢ ص ؛ ٢٢ سم . (الجوائز)
تدمك ٢ ١٨٢ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الأدباء البرتغاليون.
٢ ـ سارماجو ، جوزيه.
٣ ـ التراجم الذاتية.
(أ) العنوان :
(ب) عبداللطيف ، أحمد (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٨١٨/ ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 182 - 2
ديوى ٩٢٨,٦٩

سيرة ذاتية

الذكريات الصغيرة

جوزيه ساراماجو

ترجمة : أحمد عبد اللطيف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

● الكتاب: الذكريات الصغيرة

As pequenas memórias

● الكاتب: جوزسيه ساراماجو José saramago

● ترجمة: أحمد عبد اللطيف

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

«سلسلة الجوائز»

مـازال أمـام سلسلـة الجـوائز الكثـيـر مـن الأحـلام الكبـرى، التـى تعمل بدأب على تحقيقهـا، فلقد شـهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غيـر مسبوق بالأعمال الأدبية فى شـتـى أنـحـاء العـالم، وزادت أعـداد الجـوائـز المهـمـة وأشـكـال تكريـم المبـدعـين، فـازدادت بـالتـالى الـروائـع الأدبيـة، التـى تنتظـر التـرجـمـة والنشـر فـى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضـع نصب أعيننا قطع المسـافـة بين الواقع والمأمـول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية التـرجـمـة بداية من احـتـرام حـقـوق الملكيـة الفكرية للمـؤلف ومـرورًا بتطوير شـكل الكتـاب، ووصـولاً إلـى قناعـة بأن النـصـوص الأدبيـة لهـا وضـعـهـا الخـاص باعـتـبـارهـا مـؤلفـات جـمـاليـة مـتـفـردة ومن ثم تكون ترجمـتهـا إبداعًا موازيًا يتحـمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

*من أقوال ساراماجو

- للهزيمة وجه حسن : إنها غير نهائية. وللانتصار وجه قبيح :إنه دائمًا نهائى.

- الرجل المعاصر له ثلاثة أمراض: عدم الاتصال، الثورة التكنولوجية، الحياة المركزة فى نجاحه الشخصى.

- الوحيدون المهتمون بتغيير العالم هم المتشائمون، فالمتفائلون سعداء بما يملكون.

- ما نحن إلا ذكرياتنا و المسئولية التى نتحملها. فمن غير ذكرى لا وجود لنا، ومن غير مسئولية لا نستحق الحياة.

- يوجد فى العالم قوتان : أمريكا أنت ذاتك (فى مظاهرته ضد غزو العراق).

- أكثر الناس الذين عرفتهم فى حياتى حكمة كان رجلا لا يعرف القراءة و الكتابة (إشارة إلى جده من أمه).

- لا الشباب يعرف ما يستطيع، ولا الشيخوخة تستطيع ما تعرف.

- داخل كل منا شيء لا اسم له، هذا الشيء هو نحن أنفسنا.

- أعتقد أننا جميعاً عميان ، عميان نستطيع أن نرى ، لكننا لا ننظر.

- هناك من يقضى حياته كاملة فى القراءة دون أن يحقق شيئًا أبعد من ذلك ... فلا يدرك أن الكلمات ما هى سوى أحجار مرصوصة لنعبر من خلالها للضفة الأخرى من النهر ... وهذه الضفة هى الأهم.

- تنفع الاستعارة عندما نصف عالمًا لا فائدة منه . فالكتاب و الفنانون أناس يعملون فى الظلام، مثل الأعمى الذى يتحسس طريقه فى العتمة.

- الفرق بين الإنسان و الحيوان هو قدرة الإنسان على الأمل.

- إن النجاح " مهما كلفنا الأمر "، يجعلنا أسوأ من الحيوان .

- الأسهل الوصول إلى المريخ من الوصول إلى أعماق أنفسنا.

- أنا لست فيلسوفًا و لا عالمًا، لكننى أعتقد أن الخير و الشر لا بداية له، فبداخل عقولنا يكمن كل شىء.

- تبدأ الشيخوخة عندما نفقد الفضول.

- دائمًا ما يحكمنا رجل أعور أو رجل شاطر.

إلى بيـلار : التى لم تكن قـد ولدت بعد، وتأخرت فى المجىء.

«اترك زمام أمرك للطفل الذى كنته»

كتاب النصائح

يطلقون عليها اسم ازينهاجا، هذه القرية التى تقع فى نفس مكانها منذ شقشقة الفجر الأولى على الأرض (حيث كانت أرضا للامتيازات فى القرن الثالث عشر) ، لكن لم يتبق شىء من هذا التاريخ الطويل سوى النهر الذى يعبر بجوارها (أتخيله بهذه الصورة عابرًا منذ بدء الخليقة) والذى لم يغير قبلته أبدًا على مدى البصر، بالرغم من أنه قد تجاوز حدوده فى عدد غير متناه من المرات، وعلى مسافة أقل من كيلومتر من آخر بيوت القرية، ناحية الجنوب، كان نهر الألموندا ، نهر قريتى، يتقاطع مع نهر التاجو (واسمحوا له أن أعتبره إنسانًا) هذا النهر الذى يغذيه فى فترات الجفاف، بقدر تدفق مياهه المحدود، ليغمر بذلك الحقول عندما تطلق السحب أمطارها الشتوية الغزيرة ، فيفيض النهر، الممتلئ و المتدفق، بمائه الغزير. أما الأرض فهى مسطحة، مستوية مثل كف إلى، بلا نتوءات جبلية جديرة بهذا الاسم، ومن ناحية أخرى فقد شيد أهل القرية سدًا ليساعدهم فى ترشيد تيار المياه بتقليل الفاقد ولاحتواء قوة الفيضان الطاغية. فمنذ الأزمنة العتيقة والناس التى ولدت هنا وعاشت فى هذه القرية قد تعلمت كيف تتعامل مع

النهرين معًا، هذان النهران اللذان شكلا شخصية القرية، نهر الألموندا الذى يجرى تحت أقدامهم، ونهر التاجو البعيد، يجرى نهر الألموندا شبه مختبئ وراء سور من أشجار الحور ولسان العصفور والصفصاف الأبيض، تلك الأشجار التى تصاحبه فى مجراه . كل نهر منهما ، بمزاياه وعيوبه، صار منحوتًا بقوة فى ذاكرة و أحاديث عائلات القرية. فى هذا المكان جئت إلى العالم ، ومن هذا المكان، قبل أن أتم الثانية من عمرى، رحلت مع أبوىَّ تحت ضغط الحاجة، لنستقر فى لشبونة، هذا المكان المختلف فى إحساسه وفكره وطريقة معيشته، كما لو كان محل ميلادى الأول جاء نتيجة خطأ من أخطاء الصدفة، أو شرود القدر، الذى كان بيده أن يصحح خطأه ، لكن هذا لم يحدث. فبدون أن ينتبه أحد، اتسعت جذور الطفل وتمددت، والبذرة الهشة التى كانت ذاتى كان أمامها متسع من الوقت لتدوس طين الأرض بقدمين صغيرتين مضطربتين، ليهبنى هذا الطين الماركة الأصلية للأرض التى لا يمكن أن تمحى، كما وهبتنى هواء المحيط الرحب بأرضيتها المتحركة . كان هذا الطين ، الجاف أحيانًا و المغمور بالماء أحيانًا أخرى، يتكون من فضلات النباتات والحيوانات، من بقايا كل شىء وأى شىء، من الصخور المطحونة، المسحوقة، من مواد كثيرة متغيرة الألوان والأشكال، من مواد تجاوزت الحياة و إليها تعود، كما تعود الشمس و القمر، كما يعود الفيضان و الجفاف كما تتناوب الحرارة و

البرودة، الريح و الهدوء ، الألم والفرح ، المخلوقات والعدم، كنت أعلم ، بدون أن أعلم أننى أعلم ، أنه قد كتب سلفًا فى كتاب القدر الذى لا يمكن الاطلاع عليه وفى منعطفات الصدفة المسدودة إننى يجب أن أعود لأزينهاجا لتتم ولادتى . وخلال سنوات طفولتى ومراهقتى الأولى ، كانت هذه القرية الفقيرة والخشنة المحاطة بالخضرة و المياه، ذات البيوت المنخفضة الملتفة باللون الرمادى المفضض لأشجار الزيتون، المحروقة بهجير الصيف و قسوة الشتاء القارص، الغارقة بمياه الفيضان الذى يصل لأبواب بيوتها، كانت هذه القرية هى المهد الذى اكتمل فيه تكوينى، كانت الكيس الذى بداخله كونت النطفة الصغيرة نفسها بكل خيرها وشرها، وحققت ذلك فى صمت وسرية وعزلة .

يقول المتخصصون إن القرية ولدت وترعرعت على طول سيل ، شارع بشكل الأزينهاجا ، وهو مصطلح مشتق من الكلمة العربية: الزنقة (الشارع الضيق). لكن، بالمعنى الحرفى للكلمة، لا يكون هذا ممكن الحدوث فى بدايات القرية . ذلك لأن الشارع، سواء أكان ضيقًا أم واسعًا، يسمى دائمًا شارع. بينما السيل لا يمكن أن يكون إلا طريقًا مختصرا، طريق غير مباشر للوصول بأقصى سرعة إلى حيث تريد، طريق لا مستقبل له بشكل عام وبلا طموحات مفرطة فى توسيعه. أنا لا أعلم فى اية لحظة دخلت زراعة الزيتون الشاسعة هذه القرية، لكننى لا أتردد فى أن

أقول إن أشجار الزيتون الأكثر قدما قد زرعت فى هذه الأرض منذ قرنين أو ثلاثة قرون على الأقل، لأن هذا ما تؤكده الروايات المسنودة من قبل الأجداد. لكن لن تزرع الأرض بأشجار الزيتون لقرون . فمنذ عدة سنوات دمروا بلا رحمة قراريط وقراريط من الأرض المزروعة بالزيتون ، فاقتلعوا مئات آلالاف من الأشجار، واستأصلوا من أعماق الأرض، أو تركوها لتتعفن، الجذور القديمة. اقتلعوا هذا الزيتون الذى ظل على طول أجيال و أجيال يضىء القناديل ويعطى للطعام طعمًا. قدم الاتحاد الأوروبى الهدايا لأصحاب الأراضى، وأغلبهم من كبار الملاك ، مقابل كل شجرة زيتون مقتلعة.

واليوم، بدلا من أشجار الزيتون الغامضة والمزعجة لغموضها، أشجار طفولتى وصباى، بدلا من هذه الجذور المعوجة ، المغطاة بالطحالب و البهاق، والمثقوبة بمخابئ ترحب بالسحالى، بدلا من الأغصان المحملة بالزيتون الأسود والعصافير، لا نجد أمام أعيننا سوى حقل شاسع، رتيب، لا نهاية له ، مزروع بالذرة المهجنة، بعيدان متساوية الطول، وربما متساوية أيضًا فى عدد الأوراق و السيقان، وربما غدا تتساوى فى النضج ونفس عدد الكيزان بل ربما تتساوى الكيزان فى عدد الحبات. أنا لست شاكيًا من شىء، ولا أبكى على ضياع شىء لم يكن حتى ينتسب

لى، فقط أحاول أن أشرح أن هذا المنظر الحالى ليس خاصًا بى، وأن هذا المكان ليس هو المكان الذى ولدت به وترعرعت فيه.

نحن.نعلم بالتأكيد أن الذرة حبة ذات احتياج أولى، وبالنسبة لكثير من الناس مازالت أهم من الزيد، وأنا شخصيًا، فى أيام صباى ، فى سنوات ربيعى الأولى وأنا فى مراهقتى، كنت أسير بحقول الذرة فى هذا الوقت، بعد أن ينتهى الفلاحون من الحصاد، بجوال من القماش معلق فى رقبتى، كى أبحث عن كيزان الذرة المختبئة بين تراب الأرض. وأعترف، مع ذلك، أننى الآن أشعر بنوع من الرضا الشرير ، بنوع من الثأر غير المطلوب و لا المحبوب ، لكنه يأتى على خاطرى عندما أستمع لأهل القرية وهم يقولون إنه كان خطأ فادحا، كان حماقة ارتكبها الكبار، عندما اقتلعوا أشجار الزيتون العتيقة. لكن، لا فائدة من البكاء على الزيت المسكوب. يحكون لى الآن أنهم عادوا لزراعة الزيتون ، لكن مهما طال به العمر فسيظل صغيرا ، فهو ينمو سريعًا وسريعًا تحصد ثماره. ومازلت أتساءل : أين ستختبئ السحالى.

لم ير الطفل الذى كنته المنظر المحيط بنفس رؤية الرجل البالغ الذى صرت إليه ، وبالتالى صار الطفل بداخلى مفتونًا بتخيله من منظوره كرجل. لقد كان الطفل بكل بساطة، فى فترة الطفولة، جزءًا من هذا المنظر، لذا لم يكن يسأل، لم يكن يفكر، لم يكن ينبس

بهذه الكلمات أو بكلمات أخرى مثل : " ياله من منظر جميل ، يالها من بانوراما رائعة، يالها من رؤية مبهرة!" .بكل تلقائية، عندما كان يصعد لبرج الأجراس بالكنيسة، أو يتسلق لقمة شجرة لسان العصفور التى يصل طولها لعشرين مترًا، كانت عيناه الشابتان قادرتين على تقييم و تسجيل الأماكن العظيمة المفتوحة أمامه، لكن لا بد من أن أقول إن انتباهه كان دائمًا يفضل التمييز و التركيز فى الأشياء و الكائنات القريبة منه ، فى هذا الذى يمكن لمسه بأصابعه ،وهذا الذى يقدم له نفسه كشىء، بدون أن يدرك ذلك، يتعجل ليتوغل ويصبح جزءًا من روحه (ولا ضرورة أن أذكركم أن الطفل لم يكن على دراية أنه يحمل بداخله هذه الجوهرة) وقد يكون هذا الشىء حية زاحفة، نملة رافعة فى الهواء سنبلة قمح، خنزيرًا يأكل فى الحوض، ضفدعًا جبليًا يسير مهتزًا فوق أقدام ملتوية، أو حجرًا، أو نسيج عنكبوت، أو أخدودًا فى أرض عالية تركه المحراث، أو عشا مهجورًا، أو دمعة زيت جافة فى جذع شجرة الخوخ ، أو صقيعًا لامعًا فوق الحشائش القصيرة، أو حتى النهر.

وبعد سنوات طويلة ، وبكلمات المراهق الذى صاره الطفل، يكتب قصيدة عن هذا النهر - تيار الماء المتواضع صار اليوم ملوثًا و كريه الرائحة - .هذا النهر الذى كان يغتسل فيه ويبحر من خلاله. وعنون قصيدته هذه بـ (القصيدة الأولى) قال فيها :

أسحب خيطًا وجدته رخوًا
من بكرة خيط الذاكرة المكورة،
من الظلام ، من العقد المسدودة.
أحرره رويدًا رويدًا،
خشية أن ينسل بين أصابعى.
خيط طويل،
ذو لون أخضر و أزرق ،
برائحة الطين،
ورخاوة الطمى الساخن المبلل .
كان نهرًا .
يجرى بين أصابعى،
التى صارت مبللة به.
يتسرب ماؤه بين أصابعى المفتوحة،
وفجأة لا أدرى
هل يولد الماء من يدى
أم أنه يتدفق ناحيتى.
أواصل فى سحب الخيط،
ليس فقط من ذاكرتى،
بل أيضًا من جسد النهر ذاته .
تبحر المراكب فوق جلدى،

أصير أنا المراكب والسماء تعتليها،
وأصير شجر الحور الذى ينزلق ببطء
فوق نقرتى عينى اللامعتين.
تسبح الأسماك فى دمى ،
تتراقص بين موجتين ،
مثل إشارات الذاكرة المتوترة .
أشعر بقوة العناق وبالعصا التى تمتد لها .
فى أعماق النهر و أعماقى
ينبض القلب بخفقان بطىء وحازم .
الآن يتغير لون السماء و تقترب .
يصير كل ما فيها رنانًا وأخضر ،
فغناء الطيور ينتقل من غصن لغصن .
وعندما يرسى المركب فى مرساه الرحب ،
يلمع جسدى العارى تحت الشمس ،
بين البريق الهائل الذى يضىء سطح النهر.
وهناك تمتزج فى حقيقة واحدة
ذكريات الذاكرة المضطربة
مع حمل المستقبل الذى يظهر فجأة .
يهبط طائر بلا اسم ،
لا أعرف من أين يأتى ،

يستريح صامتا فوق مقدمة المركب الصلبة .

أقف صامتا،

أتمنى أن يصير لون الماء أزرق ،

أن تقول الطيور فوق الأغصان

لماذا أشجار الحور عالية ولأوراقها حفيف .

حينها، عندما يتراءى لى المركب والنهر مثل جسد الإنسان،

أواصل سيرى للأمام حتى الماء الذهبى الراكد

المختان بسيوف طولية.

وهناك أدفن العصا على عمق ثلاثة أشبار

حتى تصل للحجر الثابت.

أشعر بصمت هائل أزلى

عندما تلتقى يدى بيده.

سأعرف بعد ذلك كل شىء.

أبدا لا نعرف كل شىء ، ولن نحيط علما بكل شىء أبدًا ، لكن أحيانا نعتقد أننا قادرون على معرفة كل شىء، ربما لأن فى هذه الأحيان لا شىء يستطيع أن يملأ روحنا أو ضميرنا أو عقلنا، أو أيا كان اسم هذه الكينونة التى تجعل منا بشرا. انظر من أعلى نقطة فى المنحدر لتيار الماء الذى يتحرك بالكاد ، لقطرات الماء رصاصية اللون، وبشكل غير معقول أتخيل ان كل قطرة ربما تعود لأصلها لو استطعت أن أغوص فيها

عاريًا بسنوات طفولتى ، لو استطعت أن أمسك بيدى الآن تلك العصا الطويلة المبللة أو المجدافين الرنانين للزمن القديم ، وأدفع للأمام ، فوق بشرة الماء الناعمة، المركب الخشن الذى يصل حتى حدود الحلم لكائن كان هو ذاتى، لكننى تركته هناك مرتطمًا بالشاطئ فى مكان ما من الزمن .

لم يعد للبيت الذى ولدت فيه أثر، وأنا لا أبالى بهذا الأمر ، فلم تربطنى بهذا المكان أية ذكريات. كما اختفى أيضا البيت الآخر وأصبح أطلالا، هذا البيت الذى قضيت فيه عشرة أو اثنى عشر عامًا وكان البيت الكبير ، الأكثر حميمية وعمقًا ، البيت المدقع فقرًا لجدى وجدتى من أمى، وكان اسمهما جوزيفا وجيرونيمو، هذا المكان السحرى الذى أعلم أنه حدثت فيه تغيراتى القطعية كطفل و مراهق . لقد كف اختفاء هذا البيت، مع ذلك، أن يسبب لى ألمًا، لأننى بفضل قوة ذاكرتى البناءة أستطيع أن أشيد فى أية لحظة جدرانه البيضاء، أن أزرع اشجار الزيتون التى تظلل مدخله، أن أفتح و أغلق نافذة الباب الصغيرة والسياج الحديدى للحديقة الصغيرة، التى شاهدت فيها ذات يوم حية صغيرة ملوية ، أن أدخل زرائب الخنازير لأشاهد أنثى الخنزير ترضّع صغارها ، أن أذهب للمطبخ وأسكب من الإبريق للكوب النحاسى المطلى بالمينا ماءً يقتل عطشى للمرة الألف فى هذا الصيف. حينها أقول لجدتى: " يا جدة ، سأذهب لأتجول بالقرب من هنا". فتجيب جدتى: "اذهب

اذهب"، لكنها لا تنصحنى أن آخذ حذرى، ففى هذا الزمن كان الكبار يثقون فى الصغار الذين يربونهم . أضع قطعة خبز من الذرة وحفنة زيتون وتينًا جافًا فى عيبتى، أختار عصا على سبيل الاحتياط فربما أضطر للدفاع عن نفسى عند لقاء كلب غير مرغوب فيه ، وأخرج إلى الحقل. ليس أمامى أماكن كثيرة لأختار بينها : فإما النهر ، بنباتاته شديدة التعقيد التى تغطيه وتحمى حوافه ، وإما أشجار الزيتون وجدامة القمح الجافة حديث الحصا ، وإما شجيرات الورديات الكثيفة والزان ولسان العصفور والحور التى تحيط بنهر التاجو، بعد نقطة التقائه بنهر الألموندا. أما أخر اختياراتى فهو الاتجاه صوب الشمال، على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من القرية، حيث تقع الباولار دى بوكيلوبو، تلك البحيرة، الحوض، البركة، التى نسى خالق المناظر الطبيعية أن يأخذها للفردوس. لم يكن هناك اماكن كثيرة لأختار بينها، حقًا ، لكن ، بالنسبة للطفل الكئيب وللمراهق المتأمل والحزين على الدوام، هذه كانت الأماكن الأربعة التى ينقسم إليها العالم، إن لم يكن كل منها منفردًا عالمًا كاملا. ربما تستمر المغامرة ساعات، لكنها لا تنتهى أبًا قبل أن يحقق مبتغاه . إن اجتياز أراضى شجر الزيتون المتقدة، فتح طريقًا شاقًا بين الشجيرات والجذوع والعوسجة والنباتات المتسلقة التى تشكل أسوارًا شبه مدمجة على ضفاف النهرين ، والاستماع جالسًا تحت ظليلة رائقة لصمت الغابة الذى لا يكسره سوى زقزقة

العصافير وصرير الأغصان عند حركة الرياح ، والتحرك فوق الأرض الموحلة ، متنقلا من غصن لغصن على طول وعرض الأرض التى ينبت فوقها صفصاف مستح ينمو داخل الماء ، ربما يقال إن كل ذلك ليس بطولات لتذكر هنا خاصة فى زمن كهذا الذى نعيش فيه الأن، هذا الزمن الذى فيه يستطيع أى طفل فى الخامسة أو السادسة من عمره ، سواء كان طفلا فى العالم المتحضر أو العالم الحضرى والكسلان ، أن يسافر لكوكب المريخ ليسحق رجالا عدة لونهم أخضر يظهرون له فى كل خطوة ، وأن يهلك عددًا عظيمًا من الجيش الفظيع للتنانين الآلية التى تحتفظ بكنز فويرتى نوكس ، ويهشم ملك الديناصورات إلى أجزاء ، ويهبط بلا جهاز للغوص إلى أعمق بؤرة تحت الماء ، وينقذ البشرية من الحجر النيزكى الخرافى الذى كان قد أوشك على تدمير الأرض . وبجانب هذه البطولات العظيمة، لا يستطيع طفل أزينهاجا إلا أن يقدم تسلقه لأعلى نقطة فى شجرة لسان العصفور ذات العشرين مترًا، أو لو أردتم، بكل تواضع ، بالرغم من استغلاله الأمثل لفمه، أن يقدم تسلقه لشجرة التين بحديقة بيتهم الصغيرة، فى الصباح الباكر ، ليقطف الثمار التى مازالت مبللة بندى الليل ويرتشف ، كعصفور ذواق، نقطة العسل التى تنبت منها . إنه شىء ضئيل، حقا، لكن يبدو لى غالبًا أن البطل الذى استطاع الانتصار على ملك الديناصورات ليس بمقدوره أن يمسك سحلية بيده.

هناك من يؤكد بكل جدية ، بالحجة الدامغة للاستشهاد الكلاسيكى ، إن المنظر الطبيعى ما هو إلا حالة نفسية ، وهو ما يريد ان يقول إن الانطباع الناتج عن تأمل منظر طبيعى يتوقف دائما على التغيرات المزاجية وروح البهجة او السوداوية التى تتحرك بدواخلنا فى اللحظة المحددة التى تقع فيها عيوننا على هذا المنظر وأنا لا أتجرأ على التشكيك فى هذا الرأى. وأظن بالتالى أن الأحوال النفسية هى إحدى خواص سنوات النضج، خاصية للناس البالغين، للأشخاص القادرين على التحكم فى تصوراتهم الرصينة بإرادتهم الخاصة ويتمكنون بحدة ذهنهم من التحليل والدفاع والتفصيل. إنها أمور خاصة بالناضجين، الذين يعتقدون أنهم يحيطون بكل شىء علمًا. أما هذا المراهق ، على سبيل المثال، فلم يسأله أحد عن روح الدعابة التى شعر بها أو عن الاهتزازات التى سجلها جهاز الزلازل الخاص بروحه، أثناء ظلام الليل، فى ساعة فجر لا تنسى، عند خروجه من أسطبل الخيل حيث كان ينام بجوار هذه الحيوانات، أضاء جبهته، وجهه ، كل جسده ، بل وأضاء شيئًا آخر وراء الجسد، نصوع قمر من أبهى ما رأت العين البشرية. كذلك لم يسأله أحد بماذا شعر، مع سطوع الشمس، وبينما كان يسوق الخنازير بالروابى والوديان عند العودة من السوق حيث باع الجزء الأكبر منها، انتبه أنه كان يطأ أرضًا لطريق عمومى مرصوف بدائى ، يتكون من قطع حجرية تبدو محبوكة بشكل

سيئ ، وكان اكتشافًا نادرًا فى بادية تبدو صحراوية ومهجورة منذ بدء الخليقة . ربما لم يدرك هذا الأمر إلا متأخرًا، بعد سنوات طوال، أدرك فيها أنه وطأ بكل ثقة بقايا طريق رومانى .

وبالرغم من كل شيء، لا تقارن هذه الأمور المدهشة، سواء الخاصة بى أو المتعلقة بالمتلاعبين مبكرًا فى العوالم الافتراضية، بهذة المرة التى خرجت فيها أثناء غروب الشمس من ازينهاجا، من بيت جدى (كان عمرى حينها حوالى خمسة عشر) ، لأتوجه لقرية بعيدة ، تقع على الجانب الآخر لنهر التاجو، حيث سألتقى بفتاة كنت أعتقد أننى أعشقها. عبرت النهر مع مراكبى عجوز يسمى جابرييل (أهل قريتى يسمونه جرابييل) ، كان المراكبى أسمر الوجه من لفحات الشمس و العرق ، كان عملاقًا اشتعل رأسه شيبًا، وكان بدينا يشبه سان كريستوبال . كنت أنا جالسًا على ألواح المرسى الخشبية، التى كنا نطلق عليها الميناء، على ضفة هذا الجانب، فى انتظار مجيئه ، بينما كنت أسمع ، فوق سطح الماء ، الذى يعكس آخر ضوء من النهار، الضجيج الإيقاعى للمجاديف . كان يقترب بتؤدة، وأنا أشعر (هل هى حالة نفسيتى)؟ إننى أحيا لحظة لا يمكن أبدًا أن أنساها. وفى مكان أعلى قليلا من ميناء الضفة الأخرى كانت توجد شجرة موز يذهب لينام تحتها ساعة القيلولة قطيع من ثيران المزرعة. وضعت قدمى على الطريق، سائرًا وسط حقول محروثة، شجيرات

وحفر و برك و حقول من الذرة، مثل صياد مختلس يبحث عن صيد نادر . هبط الليل ، وفى صمت الحقل كان الصوت الوحيد هو صوت خطواتى. أما نجاح اللقاء من إخفاقه، فسأرويه بعد ذلك. وجدت فى القرية رقصًا ونيرانًا اصطناعية ، وخرجت من القرية، على ما أعتقد، قرب منتصف الليل، كان القمر بدرًا، لكنه أقل بهاءً من القمر الآخر ، فأضاء كل ما يحيط بى. وقبل أن أصل للمكان الذى يجب أن أتخطاه لأجتاز الحقل ، هذا الطريق الضيق الذى كنت فيه أسير، بدا لى فجأة أنه انتهى ، وظهرت لى، لتعوق خطوتى ، شجرة منزوية، عالية ، شديدة القتامة فى اللحظة الأولى أمام شفافية السماء ليلا. فجأة، انطلقت نسمة هواء سريعة، زعزعت جذوع العشب الرقيقة ، وهزت منابت القصب الخضراء وماجت مياه بركة قاتمة. ومثل موجة، أثارت غصون الشجرة الممتدة، ورفعتها من جذورها هامسة ، وحينئذ، فجأة، عادت الأوراق صوب القمر بوجه مختبئ واكتست شجرة الزان كاملة (كانت شجرة زان) باللون الأبيض حتى أعلى أغصانها . كانت لحظة، لم تكن سوى لحظة ، لكنها ستدوم ما دامت حياتى . لم يكن هناك ديناصورات ولا كائنات مريخية ولا تنانين آلية، فقط كان حجر نيزكى عبر السماء (ولا عناء فى أن نعتقد ذلك)، لكن البشرية ، كما تحققت بعد ذلك ، لم تكن فى خطر . وبعد كثير من السير ، ومازالت شقشقة الفجر بعيدة ، قابلت فى وسط الحقل كوخًا من القش

وأغصان الشجر، بداخله وجدت قطعة خبز عفنة من الذرة استطعت بها أن أخدع جوعى. وهناك خلدت للنوم. ومع شقشقة الفجر الأولى استيقظت، وخرجت، أدعك عينىَّ ، وأمامى الضباب الكثيف المضىء الذى أرى من خلاله بالكاد الحقول المحيطة، شعرت وقتها داخل نفسى ، إن كنت أتذكر جيدًا، إن كنت لا أختلق هذا الآن، إننى، أخيرًا، قد ولدت. وهذه ساعة ولادتى.

لماذا أخاف كل هذا الخوف من الكلاب؟ لماذا أعشق كل هذا العشق للخيل؟ إن الرجفة، التى مازالت تواتينى إلى الآن، بالرغم من بعض التجارب الملائمة التى عشتها فى الفترة الأخيرة، أتمكن بالكاد من السيطرة عليها عندما أجد نفسى أمام مندوب مجهول من الفصيلة الكلبية، هذه الرجفة تأتينى، و أنا على يقين، من هذا الفزع الهائل الذى شعرت به عندما كنت فى سن السابعة ، عندما حل الظلام وكانت أعمدة النور العمومية مضاءة، وأنا أستعد للدخول فى مبنى بشارع فيرناو لوبيس، بسالدانيا ، حيث كنا نعيش برفقة عائلتين ، فُتِح الباب فجأة واندفع منه ، كأحد أوحش الحيوانات الملايية أو الإفريقية، الكلب الذئب لأحد الجيران الذى، فورا، بدأ فى مطاردتى ليصبح جديرا باسمه، ليصعق المكان بنباحه الوحشى ، بينما أنا المسكين، اليائس ، أتوعده من وراء الأشجار بكل ما أستطيع، وأصرخ فى طالبًا النجدة. هؤلاء الجيران ، الذين أسمح لنفسى أن

أسميهم جيرانا فقط لأنهم كانوا يعيشون معنا فى نفس المبنى ، لا لأنهم ينتمون إلى نفس الطبقة التى تنتمى إليهاعائلتى النكرة التى كانت تعيش فى غرفة على السطح بالدور السابع، قد تأخروا وقتًا طويلا فى النداء للحيوان الذى ربما تحركت بداخله الرأفة الغريزية. فى أثناء ذلك، إن لم تخننى الذاكرة ، وإن لم أجمع الخزى بالرعب ، كان صاحبا الكلب، وهما شابان رقيقان وأنيقان (ولد وفتاة، ربما ابنان مراهقان للعائلة)، يضحكان ملء شدقيهما، كما كان يقال فى هذه الأيام. وبفضل مرونة ساقى فى تلك الفترة لم يستطع الحيوان أن يطولنى، ولا حتى أن يعضنى ، أو ربما لم تكن أذيتى قصده ، فمن المؤكد أن الكلب نفسه قد فزع عندما ظهرت له فجأة عند مدخل الباب. كل منا كان يبادل الآخر خوفًا، هذا هو ما حدث . أما الجانب الطريف فى هذا الحدث، بغض النظر عن تفاهته، هو أننى كنت أعرف، عندما كنت فى الجانب الخارجى للباب، أن الكلب، هذا الكلب بالتحديد، ينتظرنى بالداخل لينقض على رقبتى... كنت أعرف ذلك ولا تسألونى كيف كنت أعرف ، لكننى كنت أعرف...

وماذا عن الخيل؟ إن مشكلتى مع الخيل لأشد عسرًا، فهى واحدة من الأشياء التى تبقى محفورة فى روح الإنسان مادام حيًا. كان لى خالة تسمى ماريا الفيرا، متزوجة برجل يدعى فرانسيسكو دينيس،كان يعمل حارسا بمزرعة موتشاو دى بايكس، وهى قطعة

أرض من موتشاو دوس كويلهوس، وهى تسمية عرف بها مجموعة الأرض الخاصة فى الضفة اليسرى للتاجو، بالقرب من الخط المستقيم لقرية كانت تقع ناحية الداخل تسمى فالى دى كافالوس. نعود مرة أخرى للخال فرانسيسكو دينيس. أن تكون حارسًا لأرض خاصة بهذا الحجم و السلطة يعنى أنك تنتمى للطبقة الأرستقراطية بالقرية: تملك بندقية صيد بماسورتين، قبعة خضراء ، قميصًا أبيض برقبة مزررة دائمًا، يلهب الحر و يجمد البرد، حزامًا أحمر، حذاء ريفيًا برقبة ، معطفًا قصيرًا، وبالطبع حصانًا. حسنًا، خلال سنوات طويلة ـ من الثامنة حتى الخامسة عشرة ـ لم يخطر ببال زوج خالتى هذا أن يجعلنى أعتلى هذا السرج المرغوب، وأنا، ظنى بسبب عزة نفسى الطفولية التى لم اكن واعيًا لها، لم أطلبها منه إطلاقًا. وفى يوم جميل، لا أتذكر جيدًا بأية كيفية (ربما لأنها تعرف أختًا أخرى لأمى هى ماريا دى لا لوث، أو ربما لمعرفتها بأخت لأبى تدعى ماريا ناتاليا، التى كانت تعمل كخادمة فى لشبونة فى بيت عائلة فورميجال، بشارع لوس فيريروس استريلا، حيث سأعيش هناك بعد ذلك دومًا)، أقامت فى " البيت الجميل". هكذا كنا نسميه منذ الأبد هذا البيت المتواضع لجدى من أمى، سيدة مازالت شابة، " صديقة "، كما كنا نقول فى تلك الأيام لتاجر بالعاصمة. كانت سيدة ضعيفة وفى حاجة إلى الراحة، وهو السبب الذى جعلها تتوقف هنا لتقضى

وقتًا، مستنشقة هواء أزينهاجا، وفى الطريق، تحسن بحضورها ومالها عوز البيت. مع هذه المرأة، التى لا أتذكر يقينًا اسمها بالتحديد (ربما كانت تسمى إيزاورا ، أو ربما إيرينى ،أعتقد أكثر فى إيزاورا)، كانت لى بعض المغامرات اللذيذة ، تدفع جسدى وأدفع جسدها، نلعب ألعابًا يدوى، ادفعنى أنت، أدفعك أنا، (كان عمرى حينها أربعة عشر تقريبًا) وفى النهاية ألقيها فوق أحد أسرة البيت، وأنام فوقها، صدرى فى صدرها ، عانتى فى عانتها ، بينما كانت جدتى جوزيفا، المطلعة على كل شىء أو البريئة، تضحك من كل قلبها وتقول إننى فتى شديد القوى. كانت المرأة تنهض مختلجة، حمرة الوجه، تصلح تسريحة شعرها الذى صار أشعث، وتقسم أن لو كان الأمر جادًا ما تركتنى أنتصر عليها. أما أنا فقد كنت أحمق تمامًا، أو ساذجًا، فقد كان بمقدورى أن آخذ منها الكلمة، لكننى لم أتجرأ أبدًا. كانت علاقتها بالتاجر علاقة جادة، مستقرة، وليس أدل على ذلك من أن لهما ابنه، طفلة شاحبة فى السابعة، تشبه أمها كثيرا. كان زوج خالتى فرانسيسكو دينيس رجلا ضئيل الجسد، مخدرا ، كثير التسلط فى بيته، لكنه غاية فى السلاسة كلما اضطر للتعامل مع أنداده، أو من هم أعلى منه أو الناس القادمة من المدينة . وبالتالى فليس من الغرابة فى شىء أن يحيط الزائرة بالاحترام والتقدير، وهو الأمر الذى من الممكن أن يفسر على أنه دليل على حسن الأدب الطبيعى لأبناء القرية، بالرغم من أنه

كـان يفـعل ذلك بطريقــة بدت لى دائمًا أقــرب إلى التذلل منها إلى الاحترام البسيط. ذات يوم، أراد هذا الرجل، رحـمـه الله، أن يبـرهن علي حـسن مـعـاملته للضـيـوف، فـأخـذ الطفلة ، وضـعـهـا فـوق الحـصـان ، وعدل جلستها فوق السرج كما لو كان سائس الأميرة، بينما أنا، فى صمت، أعانى من الغيظ و الخزى. بعد ذلك بسنوات، فى رحلة نهــاية الدراســة بمدرســة ألفونسو دومينجيس الصناعية ، التى تخرجت فيها صـانعًا لـلأقـفـال، امـتطيت أحـد الأحـصـنة المكفـهـرة بساميرو، معتقدًا أن هذه المرة ربما تكون تعويضًا فى المراهقة للكنز الذى سرق منى فى طفولتى : السعادة بمغامرة لم يسمحوا لى بالاقتراب منها، بالرغم من أنهـا كــانت فى مــتناول يدى. بعــد وقت طويل من الامتطاء ، ساقنى حصان ساميرو الهزيل إلى حيث أراد ، وتوقف عندما أتته الرغبـة ، ولم يكلف نفسـه عنـاء الالتـفــات لـى ولا النطق بكلمــة الوداع عندمـا سقطت من فوق السرج، فشعرت بنفس الحزن الذى انتابنى يوم امتطاء الطفلة لحصان دينيس. اليوم بيتى ممتلئ بصور الخيول . ومن يزورنى لأول مرة يسألنى إن كنت فـارسًا ، بينمـا الحـقـيـقـة الوحـيـدة هـى أننى مازلت أعانى آثار السقوط من سرج حصان لم أمتطه أبدًا. ربما لا يلاحظ هذا من الخــارج ، لكن روحى تسير عرجاء منذ سبعين عامًا.

ثمرة الكريز أتت بثمرة كريز ، الحصان أتى برجل، الرجل سيأتى برواية ريفية للمشهد الأخير من " أوتيل" لفيردى. لهذا أتحدث عن أغلبية البيوت القديمة بأزينهاجا، أتحدث بالطبع عن مساكن القرية الهائلة ، بيت أخوالى في الموتشاو دوس كويليوس، ومن المناسب أن أقول إنها مشيدة فوق قاعدة حجرية مرتفعة عن الأرض بمقدار ما لا يقل عن مترين، بسلم خارجى للدخول، وذلك لتجنب فيضانات الشتاء الجارفة. وكانت تتكون من غرفتين، إحداهما تطل على الشارع (فى حالتنا تطل على الحقل) وهى ما كنا نطلق عليها الغرفة الخارجية، اما الأخرى فكانت المطبخ ، ومخرجها على الحديقة الصغيرة ولها أيضًا سلم خشبى ، لكنه أكثر بساطة من سلم الواجهة الرئيسى . كنت أنام أنا وابن خالتى جوزيه دينيس فى المطبخ ، وفى نفس السرير . كان جوزيه أصغر منى بثلاث أو أربع سنوات ، لكن اختلاف العمر و القوة ، بالرغم من أنهما فى صالحى ، لم يمنعاه إطلاقًا من الدخول معى دائمًا فى مشاجرات كلما بدا له أن ابن خالته يرغب فى التقدم لينال التفضيل، الضمنى أو الصريح ، من قبل فتيات المنطقة. لن أنسى أبد الدهر

الغيرة المجنونة التى عاناها الطفل المسكين بسبب فتاة من البيارسا تسمى اليسى، جميلة ورقيقة . تلك الفتاة تزوجت بعد ذلك من شاب ترزى ، وبعد سنوات طوال ، جاءت لتعيش بأزينهاجا مع زوجها، الذى ظل يمارس مهنته . عندما أخبرونى ، فى إحدى الإجازات، أنها عادت ، ذهبت ومررت فى الخفاء من امام باب بيتها، وفى لحظة عابرة سريعة ، بمقدار نظرة بالكاد، التقيت بكل سنوات الماضى . كانت لحظتها تخيط ثوبًا برأس مطرقة ، لم ترنى ، لذا لم أستطع أن أعرف هل مازالت تتذكرنى أم لا . أما عن جوزيه دينيس ، ابن خالتى ، فمازلت أتذكر أننى ، بالرغم من أن علاقتنا كانت تشبه علاقة القط و الكلب ، رأيته فى أكثر من مناسبة ملقيًا على الأرض ، باكيًا يائسًا ، عندما انقضت الإجازة ، وكنت أودع العائلة لأعود إلى لشبونة. لم يرد أن ينظر لى ، وعندما كنت أحاول الاقتراب منه ، كان يقابلنى بضربيات وركلات . وكانت خالتى ماريا الفيرا محقة عندما كانت تقول عنه : " إنه شقى ، لكنه طيب القلب».

وبدون أن يطلب مساعدة من أحد ليبادر فى العملية العسيرة ،استطاع جوزيه دينيس أن يحل مسألة تربيع الدائرة . كان شقيا ، لكنه طيب القلب ...

لقد كانت الغيرة إذًا داءً بالفطرة فى عائلة دينيس فخلال فترة الحصاد ، بل أيضًا عندما يبدأ البطيخ

فى النضج وحبات الذرة فى الجفاف فى الكيزان، كان زوج خالتى فرانسيسكو دينيس نادرا ما يمر بالبيت ليلة كاملة. كان يتجول فى المزرعة ، المتسعة حقا كالمزارع الكبيرة، بلا مبالغة ، ممتطيا حصانه ، ببندقيته المتقاطعة مع سرج الحصان ، ليصطاد الحرامية، الكبار منهم و الصغار. أتخيل أنه لو واتته الرغبة فى امرأة، سواء بسبب التأثير الشاعرى لضوء القمر، أو بسبب احتكاك السرج بما بين فخذيه، سيخبَّ الفرس إلى البيت، يفض رغبته فى لحظة يستريح قليلا من المجهود، بعدها يعاود الدورة الليلية . فى ساعة فجر لا تنسى، كنت أنام بجوار ابن خالتى بعد أن انهكتنا مشاجرات وجولات النهار، فاقتحم الخال دينيس حتى داخل المطبخ بغضب جم، ملوحا ببندقيته ومطلقا صيحة : «من هناك». من هناك فى البداية، مأخوذا ، منتزعًا من النعاس بطريقة عنيفة، استطعت بالكاد أن ألمح من الباب الموارب سرير الزوجية وخالتى مرتدية قميص نوم أبيض طويلا، واضعة يديها فوق رأسها : "هذا الرجل مجنون"، كانت المرأة المسكينة تأن. مجنونًا ربما لم يكن ، لكن الغيرة كانت تستحوذ عليه، نعم، فنتيجة الجنون والغيرة واحدة. كان فرانسيسكو دينيس يصرخ مهددًا بأنه سيقتل الجميع إن لم نقل له الحقيقة حول ما حدث هنا، دعا ابنه أن يجيب فورًا، فورًا، لكن شجاعة جوزيه دينيس، التى سبق تجربتها مرارًا فى الحياة المدنية ، لم تكن كافية ليواجه أبًا مسلحًا ببندقى وبفم

يخرج منه الزبد، تدخلت وقتها وأخبرته أن أحدًا لم يدخل البيت، وأننا كالعادة آوينا إلى النوم بعد العشاء، لا شيء آخر. " وبعد ذلك ماذا حدث. ماذا حدث، اتقسم علَّى أن أحدًا لم يدخل هنا ؟ "صرخ أوتيل منطقة موتشاو دى بايكسو. بدأت أدرك حقيقة ما حدث، وكانت خالتى المسكينة، من سريرها، تشجعنى قائلة: "قل له يا زيزيتو ، قل له أنت، فهو لا يصدقنى". يبدو لى أن هذه المرة هى المرة الأولى التى أعطيت فيها كلمة شرف ، كان الموقف مضحكًا، طفل فى الرابعة عشرة يعطى كلمته قائلا إن خالته لم تكن تضاجع رجلا آخر فى سريرها، كما لو كنت أنا، الذى أنام بساقين مرتخيتين، أستطيع أن أعرف الحقيقة. لا، لا يجب أن أكون وقحًا فخالتى ماريا الفيرا كانت امرأة شريفة جدًا)، لكن الواقع أن سمو كلمة الشرف هذه أحدثت مفعولها، اظن لكونها جديدة علىَّ ، لأن لغة أهل الأرض ، بعيدًا عن القسم و اللعنات ، كانت نعم ، نعم، لا ، لا ، بدون إسراف فى طنانة مزوقة . هدأ الخال، سند بندقيته على الجدار، وظهرت الحقيقة، كان السرير من هذه الأسّرة ذات القوائم المعدنية المتحركة فى الرأس والأرجل، المتماسكة من عوارضها الجانبية بقطع كروية من نفس المعدن ، والتى نَعُمَت صمولتها الداخلية من الاستعمال وفقدت تماسكها. عندما دخل الخال، ورفع الفتيل من اللمبة الجاز، وجد ما ظنه دليل العار : قائم رأس السرير، كأصبع الاتهام، كان قد قفز من أحد جوانبه

وتعلق فوق السيدة النائمة .عندما تحركت خالتى ماريا الفيرا فى السرير لابد أنها رفعت ذراعها وجعلت العارض يقفز من مكانه . ياللوقحة ، ياالمجون الشنيع الذى تخيله فرانسيسكو دينيس ، يالحركة الأجساد المتهيجة بكل الهراء الجنسى الذى يمكن تخيله ، ربما لم يكن بوسعى وقتها أن أتخيل ذلك ، لكن الرجل المسكين لم يكن لديه الذكاء الكافى لينتبه أنه من غرفتى لم يأت الصوت ، بل من غرفته ، وهذا نموذج لدرجة قدرة الغيرة على عمى عينى كل منا أمام البراهين الأكثر وضوحًا. لو كنت أنا أحد أفراد عائلة ياجو الجبناء ، (لا أعرف ، لم أر ، لقد كنت نائمًا) ربما مزقت صمت ليل الموتشاو دى بايكسو بطلقتين من البندقية وتركت امرأة بريئة ترقد ميتة بين ملاءات لم تعرف سوى رائحة قاتل زوجته وحيواناته المنوية .

أتذكر أن زوج خالتى هذا كان يظهر من حين لآخر بصحبة أرنب حظيرة أو أرنب برى قام بصيده خلال جولاته بالمزرعة. ففى رأيه، بما أنه كان حارسًا، أن تحريم الصيد كلمة فارغة. وذات يوم جاء إلى البيت مزهوًا بانتصاره كقائد صليبى أحل الهزيمة بجيش الكفار. كان يحضر معه طائرًا كبيرًا معلقًا من قدميه، كان طائر مالك الحزين رمادى اللون، وهو طائر جديد بالنسبة لى وأشك أن صيده مشروع. كان

لحمه مائلا إلى القتامة، يميل طعمه قليلا إلى السمك، هذا إذا لم أكن أتوهم الآن ، بعد كل هذه السنوات الطوال، مذاقًا لم يلمس سقف فمى و لا مر بحلقى .

ينسب أيضًا الى الموتشاو دى بايكسو القصة الجليلة للسيدة البيثودا ، وهى امرأة قد نسيت اسمها، أو ربما لم أعرفه أبدًا ، وترجع تسميتنا لها بهذا الاسم لكبر قدميها ، وهو الابتلاء الذى لم تستطع مداراته ، لأنها كانت تسير حافية مثلنا جميعًا (أشير للأولاد و النساء) . كانت البيثودا جارة أخوالى، حائط بيتها فى حائط بيتنا، وكان بيتها وزوجها شبيهًا ببيتنا لا أتذكر أن لهما أولادًا، وكما كان يحدث كثيرًا فى هذه الأماكن، التى ترعرع فيها كل من جسدى وروحى بكل معانى الكلمة، بما فيها من خير وشر، كانت كل عائلة منهما فى حالها، فلا تعامل إحداهما الأخرى ولا تتحدث معها، ولا حتى تلقى التحية). كانت جارة جدتى جوزيفا، الملاصق بيتها لبيت جدتى، فى منطقة التقسيمات، حيث سمى هذا الجزء من القرية هكذا لأن أشجار الزيتون هناك كانت تنتمى لملاك مختلفين، ليست إلا أختًا لجدى جيرونيمو، واسمها بياتريث، والحكاية هى أنها كانت تجرى فى عروقها نفس الدماء، وتعيش بجانب كل حائط من حوائط جدتى، بابا جانب آخر، فانتهت علاقتهما، وبادلت كل منهما الأخرى الكراهية منذ زمن لم تستطع ذاكرة الطفل أن

تدركه). كان لبيثودا بالطبع اسمها الذى تعمدت به فى الكنيسة والسجل المدنى ، لكنها بالنسبة لنا كانت فقط " البيثودا "، وبهذا الاسم شديد القبح تتضح الحكاية. فى يوم شهير (كنت ساعتها فى الثانية عشرة تقريبًا) كنت جالسًا عند باب البيت، فى الدرجة العليا من السلم ، وعندما رأيت الجارة البغيضة (وهى ليست بغيضة إلا لمسألة تضامنى الأسرى الخاطئ، حيث إن هذه السيدة لم تضرنى أبدًا) قلت لخالتى، التى كانت تخيط بالداخل: " هاهى البيثودا تمر ". فخرج صوتى أعلى مما كنت أتوقع وسمعتنى البيثودا. ومن مكانها بالأسفل، وهى محقة تمامًا، فاهت بما عندها، وكالت لى من السباب ما استطاعت، ولامتنى على سوء تربيتى ووصفتنى بطفل لشبونة المدلل (وأنا من الممكن أن أكون أى شىء إلا طفل لشبونة المدلل) هذا الطفل الذى ، كما هو واضح ، لم يعلموه أهله احترام من هم أكبر منه ، وهو الأمر الذى كان فى ذلك الحين مبدأ رئيسيًا فى السير النظامى للمجتمع، وأتمت وصلتها بتهديدى بأن تحكى كل شىء لزوجها بمجرد أن يعود من عمله عند غروب الشمس. وليس أمامى من وسيلة سوى الاعتراف بأننى قضيت بقية اليوم بقلب مرتجف واختلاجات فى المعدة، خائفًا مما هو أشر، فطبقًا لما يحكونه، كان رجلا مشهورًا بالوحشية. قررت فى داخل نفسى أن أختفى حتى يحل الليل بظلامه، لكن خالتى الفيرا انتبهت للمناورة وعندما كنت أستعد

للاختفاء فى أحد الأماكن القريبة، قالت لى بأهدأ نبرة صوت فى العالم : " فى الساعة الاعتيادية لقدومه من العمل، اجلس عند مدخل البيت وابقى فى انتظاره . إذا أراد أن يضربك، فأنا هنا، لكن لا تختبئ". هذه هى الدروس الجليلة ، التى تدوم مادامت الحياة ، التى تمسك بنا من أكتافنا كلما أبدينا استعدادنا للانحناء. أتذكر (أتذكر حقًا، وليس تنميقًا أدبيا للحظة الأخيرة) غروب شمس شديد الجمال، وأنا أجلس فوق سلم باب البيت، ناظرا للسحب الحمراء و السماء البنفسجية، بدون أن أعرف ما سيحدث لى ، لكننى، بكل وضوح، على يقين بأن خاتمة يومى ستكون تعيسة كان الوقت قد تأخر، والليل قد حل، عندما وصل جارى، وصعد سلم بيته وفكرت أنا: " لقد جاءت الساعة المرتقبة ". لم يعاود الخروج. وحتى الأن لا اعرف ماذا حدث بداخل بيته . هل روت له المرأة ما حدث واعتبره هو قلة أدب طفولية غير جديرة بأن يأخذها مأخذ الجد؟ أم كانت هى من الكرم بحيث لم تخبره بكلمة واحدة عن هذا الحدث التعيس، راضية هكذا بالإهانة الموجهة لقدمين لم ترتكب ذنبًا ليكونا كبيرين؟ أم تراها فكرت فى كل ما يمكن أن أقوله لنفسى بنبَرة دالة على الاحتقار، متلعثمًا على سبيل المثال، وشفقة منها آثرت السكوت؟ الشىء المؤكد أن خالتى عندما نادتنى لأتناول العشاء، لم أكن مرتاح البال. نعم ، كنت أشعر بالسرور؛ لأننى استطعت أن أظهر شجاعة جاءتنى،

على أية حال، مستعارة ، لكننى أيضًا كنت أتجرع الشعور غير المريح بأن شيئًا ما كان ينقصنى. هل كنت أفضل أن يعاقبونى بشد أذنى بقسوة أو بجلدى فى المكان المخصص للجلد، وكنت مازلت فى سن ملائمة لذلك؟ إن عطشى للاستشهاد لم يكن يصل لهذه الدرجة. ومع ذلك، وبلا أدنى مجال للشك ، فإن شيئًا قد بقى معلقًا تلك الليلة. أو، لو تفكرت فى الأمر بشكل أفضل، فى هذه اللحظة التى أكتب فيها عما حدث، ربما لم يتبق شىء معلق. ربما كان تصرف الجيران المغضوب عليهم بالموتشاو دوس كويليوس، بكل بساطة الدرس الثانى الذى مازلت أحتاج إليه .

لقد حانت اللحظة لأفسر أسباب اختيارى لعنوان كتابى هذا، حيث فكرت فى البداية أن أسمى هذه الذكريات " : كتاب الوساوس" ، وهو العنوان الذى، من النظرة الأولى ، بل و الثانية و الثالثة، يبدو غير مرتبط بالأشياء التى رويتها حتى الآن وبالتأكيد بأغلب ما سأرويه بعد ذلك . كانت الفكرة الأولية الطموحة - فى الفترة التى كنت أكتب فيها " مذكرة الدير"، منذ عدة سنوات - هى أن أوضح أن القدسية، هذا الكشف الرباعى للروح البشرية القادر على هدم حيوانيتنا الثابتة و المدمرة كما هو مرئى، تعكر الطبيعة، تبلبلها، تضلها. كنت أفكر حينذاك أن سان أنطونيو المخدوع هذا الذى رسمه هيرونيموس بوسش فى " الوساوس" ، لكونه قديسًا، وجد نفسه مضطرًا أن يسحب من الأعماق كل قوى الطبيعة، المرئية وغير

المرئية ، فظاعات العقل و السمو الذى ينتجه، الشبق و الكوابيس، كل الرغبات المكبوتة وكل الذنوب الظاهرة. بشكل طريف ، إن محاولة نقل أمر غاية فى النفور (آه منى، لم أتأخر فى إدراك أن موهبتى الآدبية مازالت أقل عظمة من المشروع) حتى لو كان استعادة بسيطة للذكريات التى قد يلائمها أكثر عنوانًا مناسبًا، لم تمنعنى أن أرى نفسى بشكل ما فى موقف مشابه للقديس . بمعنى أننى لو كنت محطًا للأنظار، قد يجب علىَّ ايضا أن أكون، على الأقل لالتصاقى البسيط بالوظيفة، مركزًا لكل الرغبات وهدفًا لكل الوساوس. وبالفعل لو وضعنا أى طفل، ثم أى مراهق ثم أى رجل ناضج، فى مكان سان أنطونيو، فعن أى اختلافات سنتحدث؟. فكما حاصرت القديس فظاعات الخيال، طارد الطفل الذى كنته رعب الليل الفظيع، و النساء العاريات اللاتى بكل شهوانية ظللن يرقصن أمام كل قديسى كوكب الأرض لا يختلفن عن تلك العاهرة البدينة التى سألتنى ذات ليلة بصوت متعب وغير مكترث، و أنا فى طريقى إلى سينما صالون لشبونة ، بمفردى كعادتى ، " :أترغب أن تأتى معى ؟". كان ذلك فى شارع البوم ـ فورموسو ، على ناصية كان بها سلالم خارجية ، وكنت وقتها فى حوالى الثانية عشرة. وإذا كان حقًا أن بعض الصور السحرية للوحة البوسكو(el bosco) تبدو كأنها تحرف من بعيد إمكانية أية مقارنة بين القديس والطفل، سيكون ذلك بسبب عدم تذكرنا أو عدم

رغبتنا فى تذكر ما خطر فى بالنا آنذاك . تلك السمكة الطائرة التى تظهر فى لوحة البوسكو وتحمل القديس الذكر فى الرياح والهواء لا تختلف كثيرًا عن جسدنا الطائر ، كما طار جسدى الخاص عدة مرات فى فضاء الحدائق الواقعة بين مبانى شارع كاريليو فيديرا، إما يقترب من شجر الليمون والمشملة، وإما يحقق علوا بحركة بسيطة من ذراعيه ويطير فوق الأسقف. وأنا لا أستطيع أن أصدق أن سان أنطونيو قد جرب مخاوف مثلى ، ولا رأى هذا الكابوس المفزع الذى كنت أرى نفسى فيه محبوسًا داخل غرفة مثلثة الشكل خالية من الأثاث ، خالية من الأبواب والنوافذ وفى ركن ما كان يوجد " أى شىء" (أقول أى شىء لأننى لم أستطع أن أعرف أبدًا ما هذا الشىء) وكان رويدًا رويدًا يزداد حجمه كبرًا أثناء عزف موسيقى ما، دائمًا لا تتغير، وكان هذاالشىء يزيد ويكبر حتى أرتكن فى آخر ركن ، حينها أستيقظ، مكروبًا مخنوقًا، أتصبب عرقًا، فى صمت الليل المعتم. قد يقال عن كل هذا إنه لا يحتوى على شىء غاية فى الأهمية . ربما لهذا السبب تغير اسم هذا الكتاب ليصير " الذكريات الصغيرة " . نعم ، إنها ذكرياتى الصغيرة عندما كنت طفلا صغيرًا، ليس إلا.

فلنواصل. دخلت عائلة باراتا حياتى عندما انتقلنا من المبنى رقم ٥٧ بشارع لوس كافاليروس إلى شارع فيرناو لوبيس . أعتقد أنه فى شهر فبراير من سنة ١٩٢٧ كنا مازلنا نقيم فى لا موريريا، حيث إننى

أحتفظ بقوة فى ذاكرتى حدث سماع عبور صفارة طلقات المدفعية، التى كانت تطلق من قلعة سان جورج ضد المشاركين فى الثورات الذين كانوا يخيمون فى حديقة إدواردو السابع . كان خطًا مستقيمًا يختط من ساحة القلعة ويتخذ كنقطة وسط المبنى الذى كنا نعيش فيه، وقد يصطدم يقينًا بمركز قيادة الثورة اللشبونية. إصابة الهدف من عدمه قد تكون مسألة مهارة فى الرماية ومرونة محكمة. ولأن مدرستى الأولى كانت تقع فى شارع مارتينس فيراو وسن القبول للتعليم الابتدائى كان السابعة ، تركنا بيتنا بشارع لوس كافاليروس قبل أن تبدأ الدراسة بقليل . (بالرغم من أنه تبقى إمكانية أخرى لنضعها فى الاعتبار، ربما تكون أكثر ثباتًا ، أود أن أسجلها قبل أن أواصل سردى : إمكانية ألا تكون هذه الطلقات طلقات المحاولة الثورية الجريئة فى السابع من فبراير لسنة ١٩٢٧ وإنما لثورة أخرى جرت فى العام التالى . بالفعل، بالرغم من أننى قد بدأت مبكرًا فى الذهاب للسينما - سينما صالون لشبونة كما ذكرت، والتى كانت مشهورة أكثر باسم " القملة" الواقعة فى لاموريريا - إلا أن هذا الأمر لم يحدث إطلاقًا فى السن الرقيقة لخمس سنوات لم تتم بعد، وهو عمرى فى فبراير ١٩٢٧). ومن الأشخاص الذين كنا نتقاسم معهم البيت فى شارع لوس كافاليروس أتذكر فقط بشكل جيد ابن الزوجين . كان يسمى فليكس ومعه عانيت واحدًا من أسوأ كوابيس الليل، تلك الكوابيس

الناتجة بالطبع عن الأفلام التى يقف لها شعر الرأس والتى كانوا يعرضونها لنا واليوم تثير فى نفوسنا الضحك.

كانت عائلة باراتا تتكون من أخين، أحدهما شرطى، مثل أبى، لكنه كان ينتمى لجهاز يسمى بالبحث الجنائى. أما أبى، الذى سيصل بعد ذلك بسنوات لمساعد شرطة ، فكان فى ذلك الوقت حارسًا بسيطًا فى الـ psp، أى شرطة الأمن العام، وكانت خدمته إما فى الشارع وإما فى القسم، حسب ما يحدده دفتر الموظفين ، وعلى العكس من رجل الشرطة جارنا، الذى كان يسير بملابس مدنية، كان أبى يعلق رقمه المعدنى فى رقبته، ٥٦٧ . أتذكر هذا الرقم بجلاء مطلق ، كما لو كنت الآن أرى الأرقام المعدنية المطلية بالنيكل فى الرقبة الخشنة للدولمان ، وهو اسم معطف الزى الرسمى ، بقماشه الرمادى صيفًا والأزرق الغليظ شتاءً. كان شرطى البحث الجنائى بعائلة باراتا يسمى أنطونيو، وله شارب، وكان متزوجًا من امرأة تدعى كونسيبسيون، نشبت بينهما مشاكل بعد ذلك بسنوات، حيث إن أمى اشتبهت، أو كان لديها أدلة كافية ، أن بينها وبين أبى علاقة ما حميمية، واضحة أمام أى رأى سديد، بما فيهم آراء المتسامحين . لم أصل أبدًا لمعرفة ما حدث بالفعل فأنا أتحدث فقط عما يمكن أن أستنبطه وأتخيله من بعض أنصاف كلمات أمى المكنونة فى صدرها، عندما كنا فى البيت الجديد. لأن هذا هو السبب الأقوى

لانتقالنا من شارع الأب سينا فريتاس، حيث كانت تقيم العائلتان، إلى شارع كارلوس ريبيرو، وكلاهما يقع فى الحى الذى كان مشيدًا حينذاك فى المنحدر الذى يهبط من كنيسة لا بينيا دى فرنسا حتى رأس فالى أسكورو. ولم أنتقل من شارع كارلوس ريبيرو إلا عندما بلغت الثانية و العشرين ، لأتزوج من إيلدا ريس.

لا أتذكر كثيرًا الأخ الثانى فى عائلة باراتا ، لكننى أستطيع أن أتذكر شكله ، كان قصير القامة مستديرًا، مائلا إلى البدانة . لو كنت قد عرفت قبل ذلك ماذا يعمل، فقد نسيت ذلك الآن . أعتقد أن زوجته كانت تسمى اميديا، أما هو ، إن لم تخوننى ذاكرتى ، فكان يسمى جوزيه : هذه الأسماء ، كذلك الاسم الظنى للفاجرة كونسيبسيون ، تظل مدفونة خلال سنوات وسنوات تحت فيضانات النسيان ، وتنهض طائعة من أعماق الذاكرة عندما تستدعيها الحاجة، مثل غماز صنارة من الفلين لزم أعماق الماء وفجأة فارق خليط الوحل . كان لديهما ابنان ، دوميتيليا ولياندرو ، وكلاهما أكبر منى قليلا ، ولكل منهما معى حكايات تروى، وهى حكايات حلوة الذكرى، أحمد الحظ عليها. فلنبدأ بلياندرو. كان لياندرو لا يبدو غاية فى الذكاء خلال هذه الفترة، أقول ذلك حتى لا أقول إنه لم يكن ذكيًا أو لم يجتهد ليبرز هذا الذكاء. وكان العم أنطونيو باراتا لا يستخدم اللف و الدوران فى الكلام ولا الاستعارة، لذا كان يسميه مباشرة " الحمار"، بكل

تفاصيل الكلمة. فى هذه الآونة كنا نتعلم جميعًا فى كتاب المبتدئين للمدرس جواو ديوس ، هذا المدرس الذى بالرغم من أنه تمتع بحياة جديرة بأن يكون مشهورًا بوقاره كشخص وعظمته كمربى، لم يعرف أو لم يرغب أن يهرب من الوسواس السادى بإطلاق بعض الصعوبات المعجمية على طول حصصه الدراسية، أو ، بكلمات أخرى، لكرمه الساذج، لم يخطر بباله أن هذه الكلمات تعد صعوبات بالنسبة لتلاميذ مبتدئين غير مؤهلين بطبيعتهم لألغاز القراءة تلك . (كنا نقيم حينذاك فى شارع كاريليو فيديرا، بالقرب من لا موريس سواريس) وأتذكر الدروس العاصفة التى أعطاها هذا المدرس لياندرو ، والتى كانت تنتهى دائمًا بتوجيه الضرب للصغير (مثل الصفعات ، التى كانت تعرف أيضًا باسم " حدقة الخمس عيون "، وكان الضرب أداة ضرورية فى النهج التربوى الفعال) كلما تعثر فى كلمة عويصة ، لم يستطع الولد المسكين ، على ما أتذكر، أن ينطقها بشكل صحيح. وكانت الكلمة المشئومة هى " أثيلجا" ، التى كان ينطقها دائمًا " أثيجا" . كان الرجل يصرخ : " اثيلجا، أيها الحمار ، أثيلجا " ، بينما كان لياندرو، فى انتظار الصفعة، يردد " أثيجا ". ولا فائدة من وراء عنف الأول وضجر الثانى ، فالولد المسكين، حتى ولو قتلوه ، سيظل ينطقها للأبد " أثيجا". كان لياندرو بالطبع غير مطلع على القاموس، لكن هذه الكلمة،

حتى لو كانت موجودة فى القواميس، فلم تدون فى كتاب المبتدئين لمدرسنا الطيب و العزيز جواو ديوس.

أما بالنسبة لدوميتيليا ، فقد اندهش كل منا عندما كنا نلعب داخل السرير ألعاب الخطيبين، بنشاط وفضول لكل ما يوجد فى الجسد ويرغب أن يكون ملموسًا، داخلا ، مهتزًا . وأسأل نفسى كم كان عمرى فى هذه الأيام وأعتقد أننى كنت قرب الحادية عشرة أو ربما أقل (حقيقة، يبدو لى مستحيلا تحديد سنى وقتها، حيث إننا أقمنا مرتين فى شارع كاريليو فيديرا، وفى نفس البيت) . وقد عاقبونا نحن الاثنين الوقحين بالضرب غير المبرح على مؤخرتينا التى لم يكتمل شكلها بعد (ولن تستطيع أن تعرف مع من ولدت فكرة اللعب، بالرغم من أن الشىء المؤكد أن المبادرة جاءت من جانبى). وأنا لا أشك فى ان نسوة البيت الثلاثة ، بمن فيهن أمى، لابد أنهن كن يضحكن فيما بينهن خفية من المذنبين المبكرين اللذين لم يطيقا صبرا الانتظار الطويل للوقت المناسب، الذى يكشفان فيه النقاب عن خصوصياتهما. أتذكر أننى كنت فى شرفة الجزء الخلفى للبيت (فى الطابق الخامس الأكثر علوًا) راكعًا ورأسى بين الحاجز الحديدى للشرفة باكيًا، بينما كانت دوميتيليا فى الطرف الآخر، ترافقنى فى بكائى. لكننا لم ننتويا ترك الخطأ . بعد ذلك بسنوات، عندما كنا نقيم فى رقم ١١ بشارع الأب سينا فريتاس، جاءت هى فى زيارة لزوجة عمها كونسيبسيون ، لكنها لم تجد هناك

لا زوجة عمها و لا عمها ، كذلك لم يكن فى بيتنا لا أبى ولا أمى وبفضل هذا الوضع كان أمامنا الوقت الكافى للتقارب والفحص ، وبالرغم من أننا لم نقم بفعل الجنس الكامل ، إلا أن ما فعلناه ترك ذكريات لا تمحى فى نفس كل منا ، أو على الأقل فى نفسى أنا، حيث مازلت هنا أراها ، عارية من بطنها إلى أسفل. بعد ذلك، عندما كان الأخوان باراتا يقيمان فى ميدان تشيلى، كنت أذهب فى زيارتهم وأركز نظرى فى دوميتيليا، لكن لأننا قد كبرنا وأصبحنا مؤهلين لكل شىء، فقد كان من الصعب بمكان أن ننفرد بأنفسنا للحظات. وفى شارع الأب سينا فريتاس أيضًا نمت (أو لم أنم) جزءًا من ليلة مع ابنة خالة لى (كان اسمها مثل أمى، ماريا دى بيدا، وبالإضافة لكونها خالتها كانت أيضًا كفيلتها) كانت أكبر منى قليلا، نمنا معًا فى نفس السرير، على طريقة خلف خلاف. وهو إجراء احتياطى من الأمهات الساذجات لا فائدة منه. وبينما يستأنفان فى المطبخ هذا الحوار الذى لا يجب أن نسمعه والذى قطعاه ليسوقانا إلى السرير، حيث يغطيانا بأيديهن الخاصة و الحنون وتستريحان، نقوم نحن، بعد عدة دقائق من الانتظار المتلهف، وبقلب يتقافز داخلنا، تحت الملاءة و البطانية، بالبدء فى الكشف اللمسى الدقيق و المتبادل لجسدينا، بدقة وشوق مبررين، بالرغم من أن ذلك لم يكن فقط بطريقة نظامية، وإنما كان أيضًا بالطرق الأكثر تثقيفية التى كانت فى متناول يدنا من وجهة نظر

تشريحية. أتذكر أن الحركة الأولى كانت من جانبى، ولأسميها الهجمة الأولى، حيث وجهت قدمى اليمنى صوب فرجها المنمق. كنا نتظاهر بأننا نائمان كملاكين عندما حل الليل جيدًا بظلامه وجاءت الخالة ماريا موجاس ، زوجة أحد أخوات أبى و يدعى فرانسيسكو، لتأخذنى من السرير لنعود للبيت. هذه السنوات ، حقًا ، كانت سنوات البراءة .

لابد أننا عشنا فى شارع الأب سينا فريتاس مدة سنتين أو ثلاث . وعندما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية كان هذا البيت هو بيتنا. ربما كان انتقالنا لشارع كارلوس ريبيرو فى سنة ٣٨، أو ربما فى عام ٣٧ نفسه . وبالإضافة للذكرى الخاصة بى والتى مازلت أعرضها، تطوف على السطح حكايات جديدة وتواريخ جديدة، يبدو لى من الصعب، حتى لاأقول من المستحيل، أن أضع بعض الأحداث فى زمنها، لكننى على يقين من أن ما سأرويه حدث قبل نشوب الحرب الإسبانية. كانت توجد فى ذاك الحين لعبة مسلية منتشرة بين الطبقات الفقيرة، يستطيع أن يصنعها كل فرد فى بيته (كان لدى لعب قليلة ، بما فيها هذه اللعبة ، المصنوعة بشكل عام من الصفيح ، والتى نشتريها من الباعة الجائلين فى الشوارع)، وكانت هذه اللعبة عبارة عن لوح مستطيل مرصع باثنتين وعشرين قطعة، إحدى عشرة فى كل جانب، موزعين كما يوزع اللاعبون فى ملعب كرة القدم قبل ظهور التكتيكات الجديدة الحديثة، بمعنى، خمس قطع فى الصف

الأول، وهم المهاجمون ، ثلاث فى الخط التالى ، وهم خط الوسط، أو الهافز ، كما تقال بالإنجليزية، وقطعتان أو ثلاث تسمى خط الدفاع، أو باكز، وأخيرًا حارسا المرمى ، أو كيبرز . كنا نستطيع أن نلعب ببلية صغيرة، لكننا ، بشكل معتاد، كنا نستخدم كرة صغيرة من المعدن ، كنا نعثر عليها فى الكراسى البلى، ونبدأ اللعب بالتناوب بدفع الكرة ، من جانب ومن آخر، بواسطة ملعقة صغيرة، لتمر بين القطع ، حتى تدخل المرمى (كذلك كان هناك مرمى) وبذلك يتم تسجيل هدف . وبهذه اللعبة الفقيرة كان الناس يتسلون ، الصغار منهم و الكبار ، وكانوا يقيمون المنافسات الحامية و البطولات . وعندما أتأمل من مكانى هذا يبدو لى أنه كان عمرى الذهبى، وربما كان كذلك فى بعض اللحظات . لكنه لم يكن كذلك دائمًا، كما سنرى. فى يوم، كنت ألعب مع أبى فى شرفة الجزء الخلفى للبيت (أتذكر أن فى هذه الأوقات كانت العائلات المفتقرة للممتلكات تقضى معظم وقتها فى الجزء الخلفى للبيوت، خاصة فى المطبخ) وكنت جالسًا على الأرض، بينما كان أبى جالسا فوق مقعد خشبى، من هذه المقاعد التى عادة ما تصادفنا والتى كانت تعد ضرورية ، خاصة للنساء، حيث اعتدن على استخدامها أثناء الحياكة. وفى ظهرى كان أنطونيو باراتا واقفًا متفرجًا. لم يكن أبى من هؤلاء الرجال الذين يتركون أبناءهم يفوزون عليهم؛ لهذا وبلا رحمة مستغلا قلة مهارتى، كان يسدد الأهداف هدفًا وراء

الآخر. كان باراتا هذا ، بما أنه شرطى فى المباحث الجنائية، ولابد أنه قد تسلى بما فيه الكفاية بممارسة الضغط النفسى الفعال وبأساليب مختلفة على المساجين الواقعين تحت قبضته ، مع ذلك كان يفكر فى استغلال الفرصة ليتمرن أكثر من ذلك . كان يضربنى بقدمه من الخلف بينما يقول : " أنت تخسر، أنت تخسر ". ولقد احتمل الطفل ما استطاع ، أبًا ينزل به الهزيمة وجارًا يذله، لكنه، فجأة ، فى لحظة يأس ، صوب ضربة لقدم باراتا (مجرد ضربة ، من طفل مسكين ، تشبه لمسة الجرو) مصاحبة لكلمات قليلة تخفف من ضيقه ، كلمات من الممكن أن تقال فى هذه الظروف بدون أن تجرح أحدًا : " فلتهدأ ! ". وقبل أن يتم العبارة كان الأب المنتصر قد صفعه صفعتين على وجهه فجعلتاه يتقلب على أرض الشرفة الأسمنتية. ذلك لأن الولد أهان بالطبع شخصًا أكبر منه. لكن الأول والثانى، الأب والجار ، وكلاهما شرطى وحارس أمين للأمن العام ، لم ينتبها أبدًا أنهما قد أهانا شخصًا مازال أمامه سنوات طوال ليتمكن فى النهاية من رواية هذه الحكاية. حكايته وحكايتهما. ومن تلك الشرفة ، بعد ذلك بفترة، أنشأت علاقة خطبة مع فتاة اسمها ديوليندا، أكبر منى بعامين أو ثلاثة، وكانت تعيش فى بيت بشارع مواز لشارعنا، يسمى لا ترافيسا دو كالادو، وكان ظهر بيتها يطل على بيتى. يجب أن أوضح أن الخطبة، هذا الذى كانوا يسمونه خطبة، من طلب يد الخطيبة

بشكل رسمى ووعود خالدة تقريبًا، (أتريدين أن تكونى خطيبتى؟ موافقة، لو كنت جادًا فيما تقول)، هذا لم يحدث. كانت خطبتنا عبارة عن تبادل للنظرات الطويلة، إصدار إشارات باليد، التحدث كل من الشرفة فوق الأفنية الخاصة وأحبال الغسيل، أكثر من ذلك لم تتطور علاقتنا ولم تأخذ شكل الوعود. خجولا، منزويًا على نفسى، كما كانت شخصيتى، ذهبت بعض المرات إلى بيتها (كانت تعيش، أظننى أتذكر، مع جديها) مقررا فى الوقت ذاته أن أفعل كل شىء أو كل ما يمكن فعله. وكل شىء انتهى إلى لا شىء. كانت فتاة غاية فى الجمال، بوجه مستدير، لكنها ، كما لا أحب، بأسنان معوجة، كما أنها ربما فكرت أننى أصغر منها بكثير لتتبادل معى مشاعرها. انصرفت عنى قليلا بسبب عاشق آخر اكثر منى كفاءة، بالرغم من أننى، أو لست على صواب، كنت أشعر بالأسى لأن الفارق العمرى بيننا كان ملفتًا للنظر. وفى لحظة ما تخليت عن هذا المشروع. كان لقب عائلتها باكالهاو، وأنا ، كما تروننى حساسًا أمام نغم الكلمات ومعانيها، لم أكن أرغب أن أقترن بامرأة تظل تحمل طوال عمرها اسم : ديوليندا باكالهاو ساراماجو.

لقد رويت فى مكان آخر كيفية وسبب اللقب ساراماجو . فساراماجو هذا ليس لقب أبى، وإنما اسم الشهرة الذى عرفت به عائلتى فى القرية . فعندما ذهب أبى إلى سجل جوليجا المدنى ليسجل

مـيـلاد ابنه الثـانى حـدث أن الموظف (وكـان يدعى سيلفينو) كان سكرانًا (وغاضبًا، ظل أبى يتهمه بذلك دائمًا) ، وتحت تـأثيـر الكحـول وبدون أن يلاحظ أحـد تزوير الاسم، قــرر، على هـواه و من تلقــاء ذاته، أن يضيف اسم ساراماجو إلى الاسم المقتضب : جوزيه دى سـوسـا، الذى كـان أبى يطمح أن أحـمله. وأخيـرًا، فإنه بهذه الطريقة، وبفضل تدخل كل الأنوار الإلهية. أقصد بالطبع الإله باكو، إله الخمر وكل هؤلاء الذين يتـجـاوزون الحـدود المعقـولة عند شـربه، لم أكن فى حاجة إلى اختـراع اسم مستعار لأوقع فى المستقبل كـتبى كان من حظى ، هذا الحظ السعيد، أننى لم أولد فى واحدة من عائلات ازينهاجا التى وجب عليها فى هذا الوقت وخـــلال سنوات طوال ، أن يحـــاربوا اسماء شهرتهم البغيضة مثل بيتشـاتادا، كولوروتو، كارالهادا. ودخلت الحياة موشومًا باللقب ساراماجو بدون أن ترتاب عائلتى فى الامـر . وفى السـابعـة من عـمرى، عندمـا ذهبت لألتـحق بالمدرسـة الابتـدائيـة، ولأنه من الضـرورى تقـديم شـهادة مـيلادى ، خـرجت الحقيقـة عارية من بئر البيـروقراطية، هذه الحقيقـة التى استـفـزت أبى الذى ظل ، منذ انتقلنا للشبـونة، مستاءً من هذا الاسم كثيرًا . على أن الأمر الأسوأ هو أنه فى أوراقـه الرسـمـيـة يسمى جوزيه دى سـوسـا ، بينما القـانون، الصـارم و المرتاب، أراد أن يعرف كيف يكون له ابن اسـمــه بالكامل فـى الأوراق الرسـمـيـة جوزيه دى سوسـا سـاراماجو، بينما اسـمـه هو جوزيه

دس سوسا فقط. وهكذا بمرونة، وحتى يصير كل شىء فى مكانه الصحيح والمعقول، لم يجد أبى أمامه من طريقة غير أن يصدر قيدًا جديدًا لاسمه، ليصبح اسمه الكامل، مثلى، جوزيه دى سوسا ساراماجو. ظنى أن هذه هى الحالة الوحيدة فى تاريخ البشرية التى فيها يسمى الابن أباه . لكنها لم تنفعنا كثيرًا، لا نحن ولا التاريخ ، لأن أبى ، الراسخ فى جفائه، أراد دائما، وحقق ما أراد ، أن ينادوه باللقب سوسا فقط.

فى يوم أصيب جار لنا بالجنون، أقول " جار" لأننا كنا نقيم فى نفس الشارع (الذى مازال شارع الأب سينا فريتاس)، لا لأنه كان معرفتنا ، وكان شابًا ربما فى العشرينات . كان يقال إنه فقد رشده بسبب كثرة القراءة و المذاكرة. مثل دون كيشوت. أتذكر الأزمة التى تعرض لها، وهى الأزمة الوحيدة التى كنا فيها شهودا عيانا ، لأننا بعد ذلك لم نعاود معرفة شىء عنه، وأغلب الظن أنهم أدخلوه فى مستشفى ريلهافولس ، الذى كان يسمى حينها بمستشفى المجانين. فجأة ، بدأنا نسمع صرخات قادمة من الخارج ، صرخات مستاءة ، ممزقة للقلوب ، فهرولنا إلى النافذة، أمى وكونسيبسيون وأنا، لنرى ماذا يحدث. كان الشاب يقيم فى الطابق الأخير لمبنى أعلى كثيرًا من بيتنا ، يقع على الجانب الآخر من الشارع على يمين بيتنا قليلا، وهو مبنى له ناصية على شارع سيساريو فيردى . رأيناه يطل من النافذة، مرة تلو الأخرى، كما لو كان يريد أن يلقى بنفسه من هناك،

والدليل على ذلك أنه سريعًا ما ظهرت من خلفه أياد تمنعه، وهو يعارك ويصرخ صرخات تمزق القلب، بينما كان يكرر نفس الكلمات : " آه يا سان هيلاريو»!. أما عن سبب ندائه لسان هيلاريو فلم نتوصل لمعرفته. بعد قليل ظهرت سيارة الإسعاف، التى لابد أنها سيارة رجال المطافئ، حملوه بداخلها ولم يعد مرة أخرى ، على الأقل خلال الفترة التى أقمنا فيها هناك.

فى هذه الفترة كنت أنا فى مدرسة ألفونسو دومينجيس الصناعية، الواقعة فى خابريجاس، بعد أن قضيت عامين قصيرين فى ليسيه جيل فيسنتى، حيث أقمت فى دير سان فيسنتى دى فورا. وبدقة، كان تاريخ دراستى القليلة كما يلى : دخلت الليسيه فى ١٩٣٣، وعمرى عشر سنوات (كانت الدراسة تبدأ فى أكتوبر ويوم ميلادى فى نوفمبر) ، وقضيت هناك الأعوام الدراسية ١٩٣٣-٣٤ و ١٩٣٤-٣٥، وذهبت بعد ذلك لمدرسة ألفونسو دومينجيس عندما اقتربت من الثالثة عشرة. وعلينا أن نضع فى الاعتبار أنه بسبب المواد الفنية، مثل الورشة و الميكانيكا و تصميم الماكينات وهى أشياء لا تشكل بالطبع جزءًا من البرنامج الرسمى للتعليم الثانوى ، تأخرت سنة فى هذه المدرسة، بمعنى أننى دخلت الصف الأول لدراسة هذه المواد و الصف الثانى لدراسة المواد المتبقية. وبالتالى، كان تسلسل سنوات دراستى بالمدرسة الصناعية كالتالى:الصف الأول والثانى سنة ٣٥-٣٦، الثانى و الثالث ٣٦-٣٧، الثالث والرابع ٣٧-٣٨، الرابع

و الخـــامس ٣٨-٣٩، الخـــامس ٣٩-٤٠ ورحلتى لساميرو، هذه الرحلة التى لم يرد فيها الحصان أن يودعنى ، حدثت فى نهاية العام الدراسى ٣٨-٣٩ لكن قبل الامتحانات، وفى لحظة لعب، أصابنى الحظ السيئ بلوى قدمى اليسرى عندما قفزت لأعلى، فأدى ذلك إلى كسر فى العقب أجبرنى على السير لمدة شهر بنوع من الحذاء الجبسى، الذى يصل حتى الركبة، والذى كان يثبت فى الأرض بفضل حديد محدب، كنا نسميه مسندًا، كان يحشى فى الجبس. كان هذا الحذاء الجبسى حافلا بتوقيعات الزملاء ورسوماتهم و مخربشاتهم. حتى أن أحدهم راودته فكرة إمكانية استغلال الجبس كبرشامة فى امتحان الرياضيات التحريرى : " ترفع البنطلون، وينتهى الأمر ". وبالرغم من أنى لم أتبع النصيحة، نجحت.

أعتقد أن الفرصة مواتية لأروى حدثًا آخر مرتبطًا بوجودى فى هذه الدنيا. كما لو كنا لم نكتف بمشكلة الهوية الرقيقة الناتجة عن اللقب، جاءت مشكلة أخرى لتقف بمؤازارتها، وهى مشكلة تاريخ الميلاد. الحق أننى ولدت فى السادس عشر من نوفمبر ١٩٢٢، فى الساعة الثانية ظهرًا، وليس فى اليوم الثامن عشر، كما هو مدون فى شهادة السجل المدنى. وما حدث هو أنه فى هذا التاريخ كان أبى يعمل خارج القرية، بعيدًا، وبالإضافة إلى كونه لم يحضر ميلاد ابنه، استطاع فقط أن يعود إلى البيت بعد يوم السادس عشر من ديسمبر، اغلب الظن يوم السابع عشر، وكان يوم أحد. وفى ذلك الحين، وربما إلى اليوم أيضا، كان يجب أن يتم تسجيل المولود خلال ثلاثين يومًا من ميلاده، وفى حالة التأخير يتم دفع غرامة. ولأنه كان زمنًا بطريركيًا، ولا يخطر على بال أحد جواز قيام الأم أو أحد الأقارب بتسجيل ابن شرعى، خاصة لو وضعنا فى اعتبارنا أن الأب هو الوحيد الذى يعتبر رسميًا منجب المولود (ففى بطاقة التسجيل بليسيه جيل فيسنتى كنت أحمل فقط اسم أبى، دون اسم أمى)، إزاء هذا تم انتظار مجىء الأب،

وحتى لا يدفع الغرامة (فأى مبلغ، ولو كان صغيرًا، سيصير مبلغًا كبيرًا على ميزانية الأسرة) سجلنى متأخرا يومين عن تاريخ ميلادى الحقيقى، وبهذا تم حل المشكلة. ولأن الحياة فى أزينهاجا كانت هكذا. شاقة وعسيرة، كان الرجال يخرجون منها مرات كثيرة للعمل خلال أسابيع، لهذا فلابد أننى لست المذنب الأول ولا الأخير فى هذه التزييفات الصغيرة. وبفضل التاريخ المدون فى بطاقة هويتى، سأموت متأخرًا يومين، لكننى أتمنى ألا يلاحظ الفرق كثيرًا.

فى الجانب الأيمن من نفس بسطة سلمنا (كنا مازلنا نقيم فى شارع الأب سينا فريتاس) كانت تعيش . أسرة تتكون من زوج وزوجة ، بالإضافة إلى ابنهما . كان الزوج يعمل رسامًا فى مصنع خزف ، مصنع فيوفا لاميجو، الذى كان يقع فى حى اندبندينتى . أما الزوجة فكانت إسبانية، لا أعرف من أية منطقة كانت، وكانت تسمى كارمن، والابن، الذى كان طفلا أشقر، كان عمره آنذاك ثلاثة أعوام (هكذا أتذكره، كما لو لم يكبر أبدًا فى الفترة التى عشناها هناك). كنا صديقين حميمين، أنا والرسام، وهو ما يبدو مدهشًا، حيث كان رجلا ناضجًا، يمتهن مهنة نادرة فى عالم علاقاتى الصغير، فأنا لم أكن مراهقًا مدللا، لكننى لم أكن أيضًا مدركًا لبعض المهن كإدراكى لمهن أخرى. كان لقبه تشافيز، لكننى لا أتذكر اسمه، أو لم أصل لمعرفته أبدا، فهو بالنسبة لى كان دائمًا وأبدا السيد تشافيز. ولينهى عمله، او ربما

ليربح ساعات عمل إضافية، كان يصنع الخزف فى البيت فى هذه الفترة التى كنت أذهب لزيارته فيها، كنت أطرق الباب، تفتح زوجته، دائمًا فظة وقليلا ما تعيرنى انتباهًا، فأعبر لغرفة السفرة الصغيرة، حيث أجد عجلة الفخارى التى يعمل بها، فى ركن ما مضاء بمصباح. كنت أجد فى إنتظارى المقعد المرتفع الذى يجب أن أجلس فوقه، كنت أعشق مشاهدته وهو يرسم أوانى الفخار، المغطاة بطلاء زجاجى منصهر، يرسمها بدهان شبه رمادى، هذا اللون الذى يتحول بعد الحرق إلى الدرجة الزرقاء المعروفة لهذا النوع من الخزف. كنا نتبادل الحديث بينما يرسم الأزهار والحلى الحلزونية والأرابيسك وتظهر من تحت فرشاته متشابكة. وبالرغم من صغر سنى وإمكانية تخيل قلة خبرتى فى الحياة، إلا أننى كنت أشعر أن هذا الرجل الحساس و الرقيق، يشعر بالعزلة. الآن أنا أتيقن من هذه الحقيقة. أصبحت أرتاد هذا البيت باستمرار، حتى بعد أن انتقلت أسرتى إلى شارع كارلوس ريبيرو، وذات يوم أحضرت له رباعية شعرية كتبتها على الطريقة الشعبية، فرسمها هو فى طبق صغير، على شكل قلب، وأهديتها لأيلدا ريس ، التى كانت علاقة عشقى لها قد بدأت. إن لم تخنى ذاكرتى، فقد تكون هذه هى أول " مقطوعة شعرية " لى، لقد جاءت متأخرة ، فلتقل ذلك على سبيل الحقيقة، لو وضعنا فى اعتبارنا أننى كنت على وشك الثامنة عشرة، إن لم أكن قد أتممتها حينذاك. ولقد

هنأنى تشافيز كثيرا ، ورأى أننى يجب أن أتقدم بها لمسابقات شعرية ، هذه المسابقات المبهجة ، التى كانت موضة فى هذا الحين ، والتى كانت تثير الضحك والسخرية. وكانت مقطوعتى الشعرية تقول ما يلى : " انتبهى، حتى لا يسمع أحدالسر الذى أخبرك به : سأهبك قلبًا من الخزف، لأن قلبى صار ملكك " . فلتعترف أنها قد تستحق ، على الأقل ، على أقل القليل، الطبق الفضى ...

كان يبدو أن الزوجين غير متفاهمين بصورة جيدة، فالسيدة الإسبانية، ثقيلة الظل، كانت تبغض كل ما هو برتغالى. فبينما كان هو صبورًا، رقيقًا، ذا كلمات متزنة ومتحفظة كانت هى مثل رجال الحرس المدنى، جافة، طويلة القامة وعريضة المنكبين، ذات لسان كالمطرقة يمزق المشاعر بلا رحمة كلسان كامويس. وما وصفتها به يعد قليلا، مقارنة بعدوانية طبعها . فى هذا البيت بدأت أستمع لراديو إشبيلية عندما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية . ومن الطريف أننى لم أعرف يقينًا أى خصم يؤيدان، خاصة هى، أشك ، مع ذلك، أن السيدة كارمن كانت مع الفريق المؤيد لفرانكو منذ الساعة الأولى ... ومستمعًا لراديو إشبيلية اعتقدت برأسى المليئة بالوساوس أن الحرب سيطول أمدها. كان يخرج فى الراديو حينئذ الجنرال كيبو دى يانو، بخطبه السياسية التى، معذرة على قول ذلك، لا أتذكر منها كلمة واحد. على أن ما تبقى فى ذاكرتى للأبد هو الإعلان الذى يلى خطبه، وكان

يقـول: " أووه! ، يالهـا من ألوان زاهيـة، ألوان تينتـاس ريفى هـى البـاقيـة " ولم يكن فى الإعلان شىء خـاص لإقناعى بأن كيبو دى يانو نفسـه هو من ينطق الإعلان الاحتفالى بعد انتهائه من الخطبة السياسية. هذا ما كان ينقص لتكتمل " القصة القصيرة " للحرب الأهلية الإسبانية. بأسفها الباطل. والأكثر جدية من ذلك كان إلقاء خـريطة إسـبـانيـا فى القـمـامـة، بعد أشـهـر قلة، تلك الخـريطة التى كنت أعلق بهـا الدبابيس الملونة لأحدد تقدم وتقـهقـر جـيوش كـلا الجـانبـين. ولا أراه ضـروريا قولى إن مصـدر معلوماتى الوحيد فقط كـان الصـحـافـة البـرتغـاليـة الخـاضـعـة للرقـابة، وهـى، مثل راديو اشـبـيـليـة، لـن تتـفـوه أبدًا بـخـبـر انتـصـار الجمهوريين.

الحق أننى أيضًا كـانت لـى سـقطاتى اللغـوية، أو شىء شبيه، فلم يكن لياندرو الوحيد الذى يعانى من ذلك. فـعلى سـبـيل المثـال كنت أصـر على أن كلمـة ساثيردوتى يجب أن تقرأ ساكيـردوتى(*)، لـكن لأننـى كنت أشك فى الوقت نفسه، أننى مخطئ، عندمـا كنت أضطر لقـراءتها، كنت أجـد طريقـة لنطقـها بحيث لا

(*) سـاثيـردوتى : تعنى كـاهن، أمـا سـاكيـردوتى فيقصد بها : سارق الصدقات. فهى لعبة من ألعاب المؤلف ليشير إلى ان الكهنة يختلسون أموال الكنيسة. وهى الفكرة التى يعـتنقـهـا كـثيـر من الأوروبيـين. (المترجم).

يُفهم ما أقول وبالتالى لا يصححون لى. (وهذه المرات كانت نادرة لأنه كان مصطلحًا مثقفًا، واليوم يستخدم أقل لأن عدد الكهنة أقل). أظن أننى أنا من اخترعت ما يسمى فائدة الشك. بعد فترة ما استطعت أن أحل عقدتى بطرقى الخاصة وبدأت الكلمة تخرج منى ملء الفم . بعض الكلمات كانت تخرج معوجة (هذه حكايات المدرسة الابتدائية) مثل كلمة ساكابيننسى. فبالإضافة إلى أنها تشير إلى منطقة ساكابيم ، وهى البلدية التى ابتلعها اليوم التتين الشره الذى صارته لشبونة ، كان أيضًا اسمًا لنادى كرة قدم لا أعرف إن كان قد استطاع البقاء أمام جور الزمن والهبوط للدور الثانى والثالث. وكيف كنت أنطق هذه الكلمة؟. بشكل محير مطلق ، تثير استنكار من يسمعنى: ساكانيبينسى. مازلت إلى الآن اتذكر الراحة التى شعرت بها عندما أصبحت قادرًا، فى النهاى ، على قلب أوضاع المقاطع قليلة الحياء.

يجب أن أعود مرة أخرى لشارع لوس كافاليروس.
كان ظهر البيت يطل على شارع لاجييا، هذا الشارع الذى كان يسمى فى زمن أخر " الشارع القذر"، حيث كان يصب فيه شارع كابيلانيو الشهير، بحضوره المشئوم الذى لا يمكن تجنبه، فى أغانى الفادو البرتغالية وذكريات ماريا سيبيرا وماركيز ماريالبا، المصحوبة بالجيتار وكئوس العرق . كان البيت يطل على الحصن، الذى منه تراودنى ذكرى طلقات المدفعية التى كانت تطلق من أعلاه عابرة سطح بيتنا بصفارتها. كنا نقيم بالطابق الأخير (لقدعشنا فى أغلب الأحيان فى الطابق الأخير لأنه الأرخص)، فى غرفة مؤجرة من الباطن مع حق استخدام المطبخ، كما كانت الإعلانات تقول وقتذاك. أما عن الحمام فلم يكن أحد يتحدث عنه، ذلك لأن هذه الرفاهية بكل بساطة لم تكن موجودة، فقط كان يوجد مصرف فى أحد أركان المطبخ، بلا سقف، حتى أكون دقيق الوصف، وكان هذا المصرف يستخدم فى كل أنواع فك الحصر، البول منه و الغائط. لقد كتبت فى " كتاب الرسم و الخط "، فى لحظة ما، عن النساء اللاتى كن يحملن أوعية بها غائط الليل و النهار بعد تفريغ

المصرف المذكور، ويغطونها بقماش أبيض ونقى فى أغلب الأحوال. هذا المصرف كانوا يسمونه أيضا مبولة، قصرية، مبصقة، على أية حال هذه الكلمة الأخيرة لم تكن شائعة الاستعمال، ربما لأن سوقيتها تتجاوز حدود تسامح المفردات التى تستخدمها العائلات. كانت كلمة قصرية أكثر رقة. هذا البيت بشارع لوس كافاليروس ، بسلمه الضيق والمرتفع، يرتبط بفترة الكوابيس التى طاردتنى فى أحلامى، نائمًا كنت أم مستيقظًا. فما أن يحل الليل حتى تمتلئ الجدار بالظلال التى يخرج من كل منها حيوان خرافى يمد صوبى مخالبه، فيخيفنى بإيماءاته الشيطانية. أتذكر أننى كنت أنام على الأرض ، فى غرفة أبوىَّ (وهى الوحيدة كما ذكرت) ومن الأرض كنت أناديهما مرتجفًا من الخوف، لأننى كنت أرى أسفل السرير، أو فى المعطف المعلق على المشجب، أو حول الكومودينو، أو فى أحد المقاعد، كائنات لا يمكن وصفها، كانت تتحرك وتهددنى بالقفز فوقى لتلتهمنى. إن المسئول عن هذا الرعب، على ما أعتقد، هو سينما " القملة " المشهورة، بموريريا، حيث تغذيت هناك روحيًا أنا وصديقى فليكس من الوجوه الألف للون شانى، تغذيت من الناس الأشرار ومن القذرين من أحط الأنواع ، من رؤية الأشباح ومن السحر الخارق للطبيعة، من الأبراج الملعونة والسراديب المظلمة وأخيرًا، من كل أنواع الرعب الفردى والجماعى وبسعر زهيد، وكنت حينها مازلت فى جنة

الطفولة. فى أحد هذه الأفلام، فى لحظة ما، بينما كنت جالسًا فى البلكون بكل رومانسية، وبتفكير مشغول بالسيدة المعشوقة يعكسه وجهى، ظهر بطل الرواية، (هكذا كانوا يسمونه فى هذا الزمن، لكننا، رواد سينما " القملة " كنا نطلق عليه، بلا تكليف، اسم: الرجل) ظهر بذراعه الأيمن مستريحًا فوق جدار بدأ يتسلقه، من جانبه الخارجى، بعد لحظة من الإرتجاف، متتكرًا بشكل مرعب، فوضع رجل مجذوم إحدى يديه المتآكلة من المرض فوق يد الممثل ناصعة البياض، الذى ، فى المشهد الثانى، وفى نفس المكان وأمام أعيننا، أصيب، فى دوره كممثل، بمرض الجذام. أبدا، على طول تاريخ الأمراض البشرية، لم توجد حالة عدوى بهذه السرعة. وكانت نتيجة هذا الرعب أنه، فى هذه الليلة، عندما كنت نائما فى نفس سرير فليكس لا أعرف لماذا، حيث لم أعتد أن أنام بجواره) استيقظت فى ساعة متأخرة من الليل ورأيت فى وسط غرفة النوم، وأيضًا فى مطبخ عائلة أخرى، رجل الفيلم المجذوم، كما ظهر تمامًا، مرتديًا ثوبًا أسود، بقلنسوة مدببة وعكاز طويل يصل لأعلى رأسه. أيقظت فليكس الذى كان نائمًا، وهمست فى أذنه: " انظر، انظر هناك ".نظر فليكس، وليفسر لى ذلك من يستطيع، رأى بالضبط ما كنت أراه، أى الرجل المجذوم. وضعنا رأسينا، بخوف مميت، داخل ملابسنا وبقينا هكذا وقتا طويلا، مخنوقين من الخوف وقلة الهواء، حتى واتتنا الجرأة لنلقى نظرة من فتحة الملاءة

لنتحقق، براحة لا نهاية لها ، أن المخلوق التعيس قد غادر المكان. فى الفيلم تم شفاء الرجل فى النهاية بفضل إيمانه الذى دفعه للاستحمام فى كهف لورديس، ومن هناك، دخل مبقعًا، خرج نظيفًا بصحبة المرأة، التى كنا نسميها أيضًا، بقلة أدبنا، الساذجة. وانتهت هذه الأحداث المرعبة بانتقالنا إلى شارع فرناولوبيس، حيث هناك كان فى انتظارنا رعب آخر : الكلاب. كان شارع لوس كافاليروس شبيهًا بجملون، كذلك شارع فرناو لوبيس. عندما كنت أنظر من طابقنا، من الجزء الخلفى بالبيت، كان يبدو لى البيت عاليًا، بعد ذلك، حتى عندما صرت بالغًا، رأيت فى الحلم مرات كثيرة أننى كنت أسقط من هذا العلو، بالرغم من أن الفعل " أسقط " لا يجب أن نفهمه بمعناه الحرفى، أى بمعنى السقوط المتهاوى فما كان يحدث هو أننى أسقط متطوحًا ببطء، لامسًا بخفة شرفات الأدوار السفلية، الملابس المنشورة، قصريات الزرع، حتى أستريح بنعومة فوق أحجار شارع لاجيبا، بدون أن يمسسنى سوء. ومن الذكريات الحية جدًا لهذه الأيام ذكرى ذهابى، حيث أرسلتنى أمى، لشراء ملح من محل بقالة أمام بيتنا، وبعد ذلك، بينما كنت أصعد درجات السلم، فتحت القرطاس ووضعت فى فمى بعض القطع التى، عند ذوبانها، كان لها مذاق شىء غريب ومألوف فى الوقت نفسه. فى هذه الفترة أيضًا كان اكتشافى لأكثر المرطبات البدائية التى مرت بحلقى: مزيج من الماء و الخل و السكر، وهى التركيبة

التى استخدمتها فى كتابى " الإنجيل "، لأقتل العطش الأخير للمسيح . وفى هذه الفترة أيضًا بدأت فى الرسم " الفنى ". تعلمت أن أرسم اللقلق وباخرة عابرة للمحيط بنفس القطع دائمًا، وهو الإتقان الذى كررته مرات عديدة ، لا أعرف فربما لهذا السبب بدأ يتعبنى. ومن هنا بدأت أعجز عن الرسم أيا كان، باستثناء، رغمًا عنى، رسم قطع الموتور التى فرض على رؤيتها بعد ذلك بسنوات فى مدرسة ألفونسو دومينجيس الصناعية رسم قطع كاربراتير السيارة، على سبيل المثال، كانت عملية تناسب اكثر فطنة شارلوك هولمز منها للقدرة الاستنتاجية المحدودة لصبى فى الرابعة عشرة من عمره). والذى علمنى مهارة رسم الباخرة و اللقلق كان أبو فليكس، الذى كانت لديه، الأن أتذكر، أفكار دقيقة حول أفضل مناهج التربية التطبيقى : كان يربط كعب ابنه برجل الترابيزة بخيط من الصوف ويتركه هكذا خلال الوقت المناسب لأداء الواجبات المدرسية. لم أكن قد وصلت سن المدرسة بعد. كنت أشارك فليكس فى خزيه وكنت أفكر هل سيفعلون بى ذلك ذات يوم.

لم يكن كل ما شاهدته فى صالات السينما افلام رعب، تلك الصالات التى كنت أدخلها أنا الصبى بسروالى ألفضفاض وشعرى القصير. وإنما كانت هناك أيضًا أفلام كوميدية، وهى قصيرة فى أغلب الأحوال، مثل أفلام شارلوت، بامبليناس، البدين والنحيف، على أن أكثر الممثلين الذين كانوا يعجبوننى

كانا بات وباتاشون، هذان الممثلان اللذان سقطا الآن فى طى النسيان. فلا أحد يكتب عنهما ولا تعرض أفلامهما فى التليفزيون . كنت أشاهد أفلامهما خاصة فى سينما الرسوم المتحركة، بشارع اركو دى باديرا، وهى السينما التى كنت أذهب إليها من حين لآخر، وأتذكر الآن المرة التى انفجرت فيها ضاحكًا عند مشاهدتى فيلمًا لهما (أراه الآن أمام عينى) كانا يمثلان فيه دور عامل طاحونة. بعد ذلك بفترة طويلة عرفت أنهما دنماركيان وأن الطويل النحيف يسمى كارل شنستروم، وأن القصير البدين يسمى هارالد مادزن. بهذه الصفات الفسيولوجية كان صائبًا ومعروفًا أنه فى يوم ما سيلعبان دور دون كيشوت وشانتشو بانثا على التوالى . ولقد جاء هذا اليوم فى سنة ١٩٢٦ لكننى لم أشاهد الفيلم. وفى المقابل لم يعجبنى ابدًا هارولد لويد ، ومازال لا يعجبنى إلى الآن.

لم أتحدث إلى الآن عن جدّى لأبى. وأبسط ما يقال عنهما ما قاله الشاعر موريلو مندس عن الجحيم، من حيث الوجود كان موجودًا، لكن لم يكن له دور، كان جدى يسمى جواو دى سوسا، أما جدتى فاسمها كارولينا دى كونسيبسيون. كان ينقصهما كل العطف، بالرغم من أن المناسبات القليلة، فلأقل الحقيقة، التى جمعتنى بهما لم تكن كافية لأتحقق إلى أى مدى كان من الممكن أن تصل نوايانا المتبادلة لإغداق العاطفة. كنت أراهما فى مناسبات معدودة

وكان الجفاء الذى أفترضه فيهما يلقى الخوف فى قلبى. كانت هناك مجموعة من الظروف، ليس بوسعى تهيئتها أو الوقوف ضدها بالطبع، ساقتنى بشكل طبيعى وتلقائى إلى بيت جدى لأمى بأزينهاجا ليكون ملاذى بالإضافة لبيت خالتى ماريا الفيرا فى موتشاو دى بايكسو. أبدا لم تكن جدتى كارولينا، بأى حال من الأحوال، سيدة منشرحة، فعلى سبيل المثال، لا أتذكر أنها قبلتنى ذات مرة، ولو حدث ذلك فلابد أنها قبلتنى بفم جاف، فجاءت قبلتها كالعضة (والفرق بين القبلة والعضة يسير الملاحظة) والتقبيل بهذه الطريقة فى رأيى، عدمه أفضل. إن من لم يقدر أبدًا هذا التفضيل غير المشروط لجدى لأمى كان أبى، فذات يوم، عندما قلت " جدى " إشارة لجدى من أمى، صحح لى بكل جفاء ، بدون أن يتحمل معاناة مداراة غيظه: " لك جدان آخران ". ماذا أستطيع أن أفعل أنا؟ أن أتصنع حبًا لم يلمس قلبى؟ المشاعر لا سلطان عليها ، فهى ليست أشياء يتم خلعها أو وضعها طبقًا لظروف اللحظة، خاصة لو كان قلبًا بسبب السن، غير محتاط ومعفى مما نحمله داخل صدورنا. ماتت جدتى كارولينا وأنا فى العاشرة. ظهر أبى ذات صباح فى مدرسة لارجو دو اياو ومعه الخبر المشئوم. جاء ليبحث عنى ، لا أعرف إن كان هذا عرفًا اجتماعيًا لم أكن مطلعًا عليه لكن طبقًا لما رأيته، كان موت الأجداد يفرض اصطحاب الأطفال فى الحال. أتذكر أننى نظرت وقتها فى ساعة الحائط الموجودة فى

المدخل، فوق باب، وكنت كمن يحاول بإدراك الحصول على معلومات ربما تفيده فى المستقبل، فكرت أننى يجب أن أحفظ الساعة فى ذاكرتى. أعتقد أننى أتذكر أنها كانت العاشرة صباحًا وبضع دقائق. أخيرًا. قرر قلب الطفل المعفى وغير المحتاط أن يلعب دورًا : دور المتأمل البارد الذى يخضع المشاعر للقيود الموضوعية للأحداث. والدليل على أننى كنت كذلك، التفكير التالى الأقل إعفاء وحذرًا، وهو أن أزرف دمعتين أو ثلاث حتى لا أكون حفيدًا بلا مشاعر فى عينى أمى ومدير المدرسة، السيد فارينيو. ومن الأشياء التى أتذكرها أن جدتى كارولينا كانت مريضة فى بيتنا لفترة ما. وكانت ترقد خلالها فوق سرير أبوىَّ، لكن أين كانا ينامان هما خلال هذه الأيام، ليست لدى أية فكرة. أما بالنسبة لى، فقد كنت أنام فى الغرفة الأخرى بالبيت الذى كنا نقيم فيه، على الأرض، بصحبة الصراصير (أنا لا أختلق شيئًا، فبالليل كانت الصراصير تسير فوقى). أتذكر أننى كنت أسمع أبوىَّ يرددان كلمة كنت أعتقد حينها أنه اسم المرض الذى كانت جدتى تعانيه : الألبومين، كان عندها الألبومين (أظن الآن أنها كانت تعانى بيلة أحينية، ولا فرق بين الأولى والثانية كما نرى ، لأن من عنده الألبومين هو من يعانى من البيلة الأحينية). كانت أمى تضع لها رقعة مبللة بالخل الساخن، لا أعرف لماذا. وخلال مدة طويلة ظلت رائحة الخل الساخن مرتبطة فى ذاكرتى بجدتى كارولينا.

المدخل، فوق باب، وكنت كمن يحاول بإدراك الحصول على معلومات ربما تفيده فى المستقبل، فكرت أننى يجب أن أحفظ الساعة فى ذاكرتى. أعتقد أننى أتذكر أنها كانت العاشرة صباحًا وبضع دقائق. أخيرًا. قرر قلب الطفل المعفى وغير المحتاط أن يلعب دورًا : دور المتأمل البارد الذى يخضع المشاعر للقيود الموضوعية للأحداث. والدليل على أننى كنت كذلك، التفكير التالى الأقل إعفاء وحذرًا، وهو أن أزرف دمعتين أو ثلاث حتى لا أكون حفيدًا بلا مشاعر فى عينى أمى ومدير المدرسة، السيد فارينيو. ومن الأشياء التى أتذكرها أن جدتى كارولينا كانت مريضة فى بيتنا لفترة ما. وكانت ترقد خلالها فوق سرير أبوىَّ، لكن أين كانا ينامان هما خلال هذه الأيام، ليست لدى أية فكرة. أما بالنسبة لى، فقد كنت أنام فى الغرفة الأخرى بالبيت الذى كنا نقيم فيه، على الأرض، بصحبة الصراصير (أنا لا أختلق شيئًا، فبالليل كانت الصراصير تسير فوقى). أتذكر أننى كنت أسمع أبوىَّ يرددان كلمة كنت أعتقد حينها أنه اسم المرض الذى كانت جدتى تعانيه : الألبومين، كان عندها الألبومين (أظن الآن أنها كانت تعانى بيلة أحينية، ولا فرق بين الأولى والثانيّة كما نرى ، لأن من عنده الألبومين هو من يعانى من البيلة الأحينية). كانت أمى تضع لها رقعة مبللة بالخل الساخن، لا أعرف لماذا. وخلال مدة طويلة ظلت رائحة الخل الساخن مرتبطة فى ذاكرتى بجدتى كارولينا.

لا أعرف كيف يشعر أطفال اليوم بالوقت، لكن فى هذه الأزمنة السحيقة ، عندما كنا أطفالا، كان يبدو لنا الوقت مصنوعًا من نوع خاص من الساعات، كلها بطيئة تزحف، لا نهاية لها. كان علينا أن نقضى عدة سنوات لنبدأ ندرك، بلا وسيط، أن كل ساعة تتكون فقط من ستين دقيقة، وبعد ذلك ، تيقننا من أن كل دقيقة لابد وأن تنتهى بعد ستين ثانية..

إلى الفترة التى قضيناها فى شارع سابينو دى سوسا، بالألتو دوبينا، تنسب الصورة (التى اختفت لسوء الحظ). التى فيها كانت أمى عند باب محل الحبوب، جالسة فوق مقعد، وانا كنت واقفًا، مسنودًا بين ركبتيها، وبجانبى جوال بطاطس به ورقة معلقة مكتوب عليها بخط اليد، كما كان يحدث فى ذلك الحين وظل مستخدمًا لسنوات طوال فى محلات الحى، لإطلاع الزبون على سعر السلعة حتى قبل أن يدخل المحل : ٥٠ سنتًا الكيلو. ومن المنظر، لابد أن عمرى كان ثلاث سنوات وقد تكون هذه أقدم صورى. أما فرانسيسكو، أخى الذى مات بسبب التهاب رئوى شعبى فى الرابعة، فى ديسمبر سنة ١٩٢٤، فمازلت أحتفظ له بصورة عندما كان رضيعًا. فى بعض الأحيان خطر ببالى أننى يمكننى أن أقول إن الصورة صورتى وبهذه الطريقة أثرى صورى الشخصية، لكننى لم أفعل ذلك أبدًا. قد يكون هذا التزييف هو أسهل شىء فى الدنيا، حيث أنه بعد وفاة أبوىّ لم يبق أحد ليستطيع أن يكذبنى، لكن سرقة صورة أحد قد فارق

الحياة تعد إهانة لا يمكن أن تغفر، وخسة لا عذر لها. فما لقيصر لقيصر، وما لفرانسيسكو لفرانسيسكو وحده.

أعود إلى عائلة القرية. كان يقال إن جدى جيرونيمو كان قد تم تسليمه وهو صغير لدار لقطاء خاصة تسمى ببيت الرحمة ب سانتارم ، والشك فى هذا الأمر لا يستحق العناء، لأن جدتى جوزيفا نفسها حدثتنى مرات عدة فى هذا الموضوع، دون أن تدخل فى تفاصيل أخرى، ربما لم تكن على دراية بها أو ربما فضلت السكوت عنها أما عن ظروف ميلاد وحياة أخته، الخالة الجدة بياتريث المكروهة، فمازلت أعرف عنها القليل. إن ذكرها يشبه الحديث عن الحبل فى بيت المحكوم عليه بالشنق. أما المسألة الأكثر حساسية فهى شهادة ميلاد أمى، حيث يعلن فيها أنها حفيدة لجد مجهول ولجدة تسمى بياتريث ماريا. من تكون هذه المرأة؟ ليس لدى أية فكرة، لكن تطابق الاسم، لو كان ضروريًا، قد يكون عنصرًا لتأكيد أن أم جيرونيمو هى أيضًا أم بياتريث التى كانت تعيش فى البيت المجاور. ربما توضح شهادة ميلاد الخالة الجدة بياتريث الأمر برمته، هذا إن وجدت. لكن مازال هناك عنصر غريب فى هذه القصة بأكملها: كيف يكون هناك شخص مجهول كان يعيش فى القرية وله من الأسباب ما يفيض ليكون معروفًا؟. من الواضح أن أم جدى جيرونيمو لم ترغب أو لم تستطع إبقاء الولد، لهذا أرسلته لدار اللقطاء، لكننى مازلت لا

أعرف ماذا حدث مع ابنتها بياتريث. هل تم تسليمها هى أيضًا لدار الرحمة ؟ طبقًا لما نراه، فهذا البربرى الشهير (الذى قد يكون عربيًا)، والذائع الصيت بتحطيم القلوب وبأن طوله شبر ، تلك المعلومات التى جاءتنى بفضل حكاوى جدتى جوزيفا السرية لى، كان قد ترك أم جدتى بياتريث ماريا حاملاً مرتين، إلا إذا كان جدى و بياتريث أخته توءما، وهو الأمر الأسهل، بالرغم من الفروقات الواضحة بين كل منهما، فهو طويل وهى قصيرة. الشىء الوحيد الذى لا ينخدع فيه أحد هو الشكل، روح العائلة (وجه خمرى، ملامح مدببة، عيون صغيرة و ضيقة) التى تجمع، كفصيلة من قبيلة معروفة على بعد فرسخ، جدى جيرونيمو وأخته، أمى وكل أخوتها: ماريا الفيرا كارلوس ، مانويل، ماريا دى لا لوث. إن العرق الذكورى الذى أنتجهم ليس من هذا المكان القروى . وعلى عكس ما يمكن أن يتصوره أحد، فأبو جدى العربى، الذى لم يتبق أثر مكتوب لخطوته فى أزينهاجا، ليس اختلاقًا رومانسيًا فعلته لأزين شجرة عائلتى المتواضعة وإنما هو حقيقة جينية مؤكدة. هذا الرجل كان يعيش خارج القرية، فى كوخ بين الصفصاف، وكان يملك كلبين ضخمين يبثان الخوف فى الزائرين عندما ينظران لهم فى صمت، بلا نباح، وكانا لا يكفان عن النظر حتى ينصرفوا. أحد هؤلاء الزوار، كما حكت لى جدتى جوزيفا، لقى مصرعه وتم دفنه هناك كان الزائر قد ذهب ليطلب من العربى تفسيرًا لجذب

ـ وهى كلمة رقيقة ـ (المرأة إليه فأعطاه لكمة فى صدره. ولم يثبت أن القاتل قد عوقب بجريمته. من يكون هذا الرجل؟

حقيقة أخرى ، تعد من الحقائق القاسية، هى سقوطى المدوى فى شارع كاسال ريبيرو، الواقع بجانب شارع فرناو لوبيس، كان ذلك فى أيام من المفترض أنها استعداد للإحسان البشرى و التسامح الإلهى، وهى أيام أعياد سان أنطونيو، المدافع عن العدل وحامى المنسيين من أعلى درجة، أينما وجدوا. إلا إذا كان السقوط الوحشى (وهو احتمال علينا أن نضعه فى الاعتبار) نتيجة لانتقام خسيس من شخص القديس عندما انتبه أن السنت الذى كان يطلبه من المارة أنفقه أنا على شراء الكراميل والإشباع التالى لشهوة النهم، ولا ينفق على التعبد للمذبح المقام عند مدخل بوابة المبنى، وفسقية الأرواح الطيبة، المتدينة والعلمانية. وما جرى فى هذه القصة المؤسفة أننى كنت أمضى مرتلا سلسلة الابتهالات التقليدية، فى منافسة مع أقرانى، وكنت أردد :"سنت من أجل سان أنطونيو سنت من أجل سان أنطونيو"، بينما كنت أرى فى الجانب الآخر من شارع كاسال ريبيرو رجلا طاعنا فى السن يعبر مرتديًا ملابس سوداء ، فوق رأسه قبعة وفى يده عكاز، كما كان معتادًا أن نرى ذلك فى شوارع لشبونة فى هذه الأزمنة البدائية. كانت رؤيته أثناء هرولتى لأسبق منافسينى الذين يسيرون بمحاذاتى، مسألة لحظة. كان بالشارع

أشـغـال، وكـانت فى الأرض بعض الأمـاكن المرتفـعـة (أعتقد لأنهم كانوا يستبدلون أحجار البازلت المكسورة بالقطران)، ومـا كـان فى الأرض كـان حـصـى خـشنًا بوسعه أن يخدش التمساح نفسه. هناك التوت قدمى، هناك وقـعت، هناك انفـتحت إحـدى ركبـتى، وعندمـا اسـتطعت فى النهـاية أن أنهض، بالدم ينزف لأسـفل ساقى، نظر لى السـيد العـجوز ، بوجه تكسوه شفقة مـصطنعـة، وواصل سـيـره ، ربما مـفكرًا فـى أحـفـاده الأحبـاء، المختلفـين عن هؤلاء الصبية أبناء الشوارع الذين لم يجدوا من يربيهم . بكيت من آلام ركبـتى ، لكننى بكيت أيضًا من الذل الذى شـعـرت به عند سـقـوطـى عند قـدمى شـخص لم يكلف نفـسـه عناء مساعدتى لأنهض، وظللت أجرجر قدمى بكل صعوبة ممكنة حتى وصلت بيتى، وهنـاك داوتنى أمى باليـود الضرورى وبضمادة مشدودة جعلتنى عاجزًا لعدة أيام عن ثنى ركبتى. أغلب الظن، الآن أعتقد ذلك، أن هذا الحادث المؤلم هو السبب فى هجـرى لطريق التعليم الدينى الأولى. كانت تعيش فى نفس المبنى، غير أنها فى الطابق الثانى على الجانب الأيسر، عائلة شديدة التدين بالكاثوليكية (أب، أم، ابن وابنة)، أقنعت سيدة البيت أمى " السيدة بيبيداد" لتسمح لها بأن تبدأ معى تعليم أسـرار الكنيسة بشكل عام والقـربان المقـدس بشكل خاص. وافقت أمى. وشكرت جارتها اللطيفة والرفيعة على اهتمامها بابنها، لكن، عندما عرفتها بعـد ذلك كـمـا عـرفـتهـا أنا، سـيدة متشككة لعدم

اكتراثها، باستثناء الأيام الأخيرة من حياتها، عندما أصبحت أرمل، حيث بدأت ترتاد الكنيسة مع صديقات لها بالحى، أظن أن أمى أغدقت على رضائها وبنفس الرغبة تركتنى أذهب للشاطئ مع هؤلاء الجيران أو مع جيران آخرين. إن المشكلة التى تطرح أمامى والتى يتحتم علىَّ أن أحلها هى: هل حدث ذلك قبل السقطة أم بعدها. أيًا كان الأمر. وبالرغم من أنهم أجلسونى فى مقعد أمامى بالكنيسة. مرة او اثنتان، لم يرج منى خيرًا كثيرًا. عندما كان خادم القداس يقرع الأجراس ويطرق المؤمنون رءوسهم طائعين، لم أستطع أن أقاوم أن أعوج رقبتى قليلا أترقب بخفاء لأرى ما يحدث، هذا الأمر الذى لا يجب أن أراه. مرة أخرى أعود إلى المشكلة، السقطة فلو أن حادثة السقوط وقعت قبل الذهاب للكنيسة فإن هذا يعنى أنهم عندما ساقونى إلى القداس كنت أذهب مستاءً، خائب الأمل فى القديس وعلى استعداد أن أعتقد أن كل القديسين الأخرين مثله. أما لو كانت السقطة بعد ذهابى للكنيسة، فهذا قد يعنى أن السقطة كانت عقابًا لأننى تركت الطريق المستقيم الذى لابد أنه سيسوقنى للجنة، وهذا الاحتمال يعنى أن الرب قد تصرف على وجه مخجل، كمتعصب كبير يثأر بسبب ذنب صغير، بدون أن يضع فى اعتباره سنوات عمرى القليلة كصبى غير مكلف بالفرائض. أبدًا لم أعرف الحقيقة. ولا يجب أن أنسى، مع ذلك، أن القدرة السماوية، على الأقل مرة واحدة قد اعتنت

بى و باثنين من أصحابى مقيمين بشارع فرناو لوبيس. كنت قد عثرت فى البيت، ولا أتذكر كيف، على خرطوش بندقية صيد فأخذته ليراه أصدقائى، لكنهم لم يروه فقط، حيث إننا، برجفة إثارة، كمتآمرين، اجتمعنا فوق درجة سلم قريبة وفتحناه لنستخرج منه ما بداخله ،البارود وحبات الرش. جلسنا على السلم الحجرى للمدخل، أحطنا كومة البارود لنرى ماذا سيحدث لو قربنا منه عود كبريت. كان الاحتراق السريع متواضعًا، لكنه كان كافيًا ليدخل فى قلوبنا رعبًا شديدًا. وإن لم تحترق وجوهنا وأيدينا فهذا بالطبع بفضل سان أنطونيو، أو أحد من أقرانه الكثيرين المقيمين بجنة الخلد، حيث تدخل ووضع بيننا وبين الانفجار يده صانعة المعجزات والمدبرة للخير. لو كان الأمر كذلك، فأنا أفضل جرح ركبتى على تدخله لإنقاذى .

عندما خطر ببالى وصف حادث سقوطى فى شارع كاسال ريبيرو، مرت بخاطرى صورة فوتوغرافية لى بجانب عمتى ماريا ناتاليا، قام بأخذها مصور متجول فى حديقة إدواردو السابع، حيث، فى أيام الآحاد بشكل ثابت، كانت الخادمات فى كلٍ بيوت الأغنياء والمجندون فى كل كتائب لشبونة يذهبون ليتنزهوا. فى هذه الصورة، التى ضاعت ككثير غيرها، كنت أرتدى قميصًا وشورتًا، وجوربين طويلين مرفوعين حتى ركبتّى، وأعلى كل منهما شريط أبيض. هناك قاعدة أساسية فى فن الأناقة تفرض أن يلف الجزء العلوى

للجورب بأستك، حتى لا يرى، لكن، طبقًا لما يمكن ملاحظته ، لم أكن قد تعلمت بعد هذه التفاصيل الدقيقة للحياة الاجتماعية. كان يلاحظ أيضًا بوضوح قشرة جرح فى الركبة اليسرى لكن هذا الجرح ليس هو الجرح الناتج عن سقطتى بشارع كاسال ريبيرو. إنها حادثة وقعت بعد ذلك بسنوات، بالقرب من ليسيه جيل فيسنتى، وتحتم علاجها فى عيادة طبية. وضعوا لها ما كان يسمى وقتها «قمطة». وهى قطعة من لوح معدنى، لها تقريبًا شكل الملقط كانت تغرز فى حواف الجرح لتلمه، وبهذا الاتصال ، يلتئم الجرح سريعاً. ظلت علامة الجرح مرئية لسنوات طوال، وحتى الآن يمكن تمييز بقاياها الهينة. جرح آخر مازلت أحتفظ به هو الخط الرقيق الناتج عن قطع مطواة، حيث كنت ذات يوم أنقش مركبًا فى قطعة فلين، هناك فى الموتشاو دى بايكسو. كنت أغرز سن المطواة لأسحب الفلين المتزايد عندما فجأة، بسبب ضعف النظام، قفلت المطواة وفتح سنها طريقه فيما وجده أمامه، الجزء الخارجى لأصبع السبابة بيدى اليمنى، بجانب الظفر. بالكاد لم أقطع جزءًا من لحمى. تمت مداواتى عن طريق إحدى الوسائل السحرية لهذه الفترة: كحول بالعصارة البلسمية. لم يلوث الجرح والتئم بشكل تام وكانت خالتى ماريا الفيرا تقول إن لحمى صحى.

فى بيت السادة فورميجال (عندما كنا نتحدث عنهم دائمًا ما كنا نستخدم كلمة السادة المليئة بالوقار) كانت عمتى ماريا ناتاليا تعمل كخادمة (كان لديهم ايضًا عاملة خارجية هى التى تقوم بالخروج للشارع للشراء ولمهام أخرى) أتذكر أننى ذات صباح (هل كنت أذهب لأصحب عمتى لنزهة يوم الاحد، إسبوع نخرج وإسبوع لا؟) فى مطبخ البيت (لأننى أبدًا لم أر موقدًا مماثلا جذبنى الموقد الاسود، بأبوابه مختلفة الأحجام وبأطره النحاسية اللامعة، وبغلايته التى كانت تحتوى دائمًا على ماء ساخن) ظهر فجأة السيد العجوز بعائلة فورميجال برفقة زوجته، السيدة ألبرتينا، الطاعنة أيضًا فى السن، بالرغم من حسن مظهرها انحنت الطباخة والخادمتان، الخارجية والداخلية، واصطففن فى جانب، فى انتظار الأوامر، لكن السيد فورميجال ، الذى كان له شارب شديد البياض و لحية صغيرة كذلك، مثل شعرة بيضاء، جاء فقط ليرى (بكل ذوق ، لا لأنه طبيب أو ممرض) ركبتى التى جرحت فى شارع كاسال ريبيرو . نظر لى بروح عطوفة، صائنة، وسألنى : " أهكذا جرحت الرضفة؟ "* . لم انس إطلاقا هذه العبارة . فالحق أن ما جرح كانت ركبتى وليس عظم الرَّضَفَة، مع ذلك لابد أنه فكر أن هذه الكلمة كثيرة السوقية، لا تليق بشخصه . أخفضت نظرى صوب مفصلى المجروح

(*) عظم منطبق على الركبة (المترجم).

وتمكنت فقط من أن أقول له: "نعم ، سيدى". لمس وجهى بحنان ومشى، وخلفه سارت السيدة ألبرتينا. نظرت لى عمتى ناتاليا، التى انتفخت بالفخر، وكذلك الخادمة الخارجية الطباخة، كما لو كانت هالة سماوية أحاطت برأسى، كما لو كان ابن أخ الخادمة الداخلية التافه اكتسب فجأة فضائل وشأنًا كانوا قبل ذلك مجهولين، لكن يد السيد فورميجال، البيضاء والمعتنية، عندما لمست بنعومة وجهى و شعرى القصير جعلتهما، أخيرًا، يزدهران. كانت عائلة فورميجال على وشك الخروج، للذهاب للقداس، لكن السيدة ألبيرتينا عادت إلى المطبخ، أحضرت لى كيس شوكولاتة: "تفضل، إنه من أجلك، ليداوى لك ركبتك"، قالت، ومضت، تاركة أثرًا لرائحة مساحيق تجميل وتاركة أيضًا الرّضَفّة فى مكانها. لا أعرف إذا كانت هذه هى المرة التى أخذتنى عمتى فيها لأرى غرفة نوم السادة، أعتقد لا. كان كل شىء فخما، رفيعا شبه كنائسى، مزينًا بالقطيفة الحمراء، ظلة السرير، المرتبة، الوسائد الصغيرة، الستائر، نجادة الكراسى: " كل شىء من أفضل الحرائر ، ومن أغلاها "، أخبرتنى عمتى. وعندما سألتها عن سبب اتخاذ الكنبة الموجودة بجانب السرير شكل حرف S. أجابتنى: "هذا سر، فالسيد يجلس على طرف والسيدة تجلس على الطرف الآخر، وبهذه الطريقة يستطيعان الحديث بدون أن يتحتم على أى منهما أن يدير رأسه لينظر للآخر، إنها عملية جدًا ". وعندما

كنت هناك، كنت أتمنى أن أتحقق من ذلك، لكن عمتى ناتاليا لم تتركنى حتى أعبر عتبة الباب. وللحظ السيئ مشينا بعد ذلك أنا و كيس الشوكولاتة. وقبل أن أخرج من بيت سادة فورميجال مضغت بعض قطع الشوكولاتة التى تركت فى فمى طعمًا مسبقًا للجنة، بالرغم من أن عمتى ناتاليا كانت واضحة وحازمة: " لا تأكل كثيرًا حتى لا تضرك "، أما أنا، فقد اطعتها كطفل طيب كالعادة . وبما أننى ليس لدى ذكريات عن تنزهى فى حديقة إدواردو السابع بكيس بداخله شوكولاتة أحمله فى يدى ويحرم علىَّ مضغها ، لابد أننا سرنا مباشرة إلى شارع فرناو لوبيس، حيث ودعتنى عمتى بعد أن روت واقعة المطبخ، نفس الأحداث لابن أخيها، وأستطيع أن أتخيل التفاصيل الرائعة، لمسة العطف الصادرة من سيد فورميجال، وكيس الشوكولاتة الذى منحته له السيدة، كم هى سيدة طيبة. حل الليل، وفى هذا الزمن: بلا راديو لنستمع للأغانى الراقصة، كنا نخلد للنوم ساعة نوم الدجاج، ومبكرًا جدًا أرسلتنى أمى للسرير. كنت أنا وأبواى ننام فى نفس الغرفة، هما على السرير الكبير، وانا على كنبة صغيرة، أو بمعنى آخر، على سرير بحر نقال، فى الجزء السفلى للسقف الشّبيه بجمالون. وعلى الجانب الآخر، فوق كرسى ملتصق بالحائط، كان يمكث كيس الشوكولاتة المرغوب فيه. عندما نام أبواى، أبى أولا كالعادة ثم أمى، حيث بقت لتغسل الأطباق او لترفأ جورًا، كانت عيناى مغمضتين،

متصنعا النوم. أطفئت النور ، دخلا هما فى النوم، لكننى لم أستطع أن أنام. وعندما إشتد الليل، والغرفة صارت شديدة الظلمة، نهضت بتؤدة وخطوة خطوة اتجهت للكيس وبعد ذلك، بثلاث خطوات واسعة ومختلسة، عدت إلى سريرى ودخلت بين الملاءات، سعيدًا أمضغ الشوكولاتة لذيذة المذاق، حتى انزلقت فى اللاوعى. وفى الصباح عندما فتحت عينَّى وجدت، منسحقًا، تحت صدرى، ما تبقى من وليمة الليل، عجين بنى اللون من الشوكولاتة، لزج ورخو، أقذر وأبغض ما رأت عيناى حتى ذلك الحين. بكيت كثيرًا. من الحسرة، لكن أيضًا من الخجل والخيبة ، وربما من أجل ذلك لم يعاقبانى أبواى ولم يوبخانى . والحق، لسوء طالعى، كنت امتلك شوكولاتة كثيرة ، لكنها نفدت . كنت قد تخليت عن وسواس النهم والنهم عاقبنى بلا عصا و لا حجر.

من حين لآخر ، كانت السيدات تذهبن أيام الآحاد عصرًا إلى بايكسا للفرجة على الفترينات. وفى أغلب الأحوال كن يذهبن سيرًا على الأقدام، وذات مرة ركبن الترام، وكان أسوأ ما يمكن ان يحدث لى فى هذه السن، حيث إننى سريعًا ما يصيبنى الدوار بسبب رائحته من الداخل، فالجو شديد السخونة ، شبه النتن، قلب معدتى وفى دقائق قليلة جعلنى أتقيأ . ففى الترام على وجه الخصوص أصير مخلوقًا ضعيفًا . مع مرور الوقت تضاءل هذا التعصب الشمى (لا اعرف اسمًا آخر لأطلقه على

هذه الحالة) لكن الحق أننى، خلال سنوات، كان يكفى أن أدخل الترام حتى أشعر بدوخة. أيًا كان السبب، سواء أشفقن على حالى، أو لأنهن كن يريدن التمشية، فى هذا الأحد هبطنا سيرًا من شارع فرناو لوبيس، أنا وأمى وكونسيبسيون، وأعتقد إيميديا أيضًا، مرورًا بشارع فونتيس بيريرا ثم بشارع لا ليبردادى، وأخيرًا صعدنا لشارع التشيادو حيث هناك كانت تعرض كنوز على بابا القّيمة. لا أتذكر الفترينات ، ولا أنا هنا من أجل الحديث عنها، فهناك مسائل أكثر جدية تشغلنى فى هذه اللحظة . بجانب أحد أبواب مخازن جرنديللا كان هناك رجل يبيع البالونات ، وربما لأننى طلبت منه (وهو الأمرالذى ارتاب فيه كثيرًا، لأن من ينتظر أن يعطوه ، يتجرأ ويطلب) أو ربما لأن أمى أرادت ، وهو شىء غير مألوف ، أن تجعلنى اجتماعيًا، صارت واحدة من هذه البالونات فى يدى . لا أتذكر أكانت خضراء أم حمراء ، صفراء أم زرقاء، أو كانت بيضاء بكل بساطة. فما حدث بعد ذلك مسح من ذاكرتى اللون المفترض أن يظل ملتصقًا بعينىّ للأبد ، حيث إنها كانت أول بالونة أمتلكها فى عمرى كله البالغ ستة أو سبعة أعوام . كنا فى طريقنا إلى الروسيو، عائدين إلى البيت، كنت فخورًا كما لو كنت أسوق العالم بأسره وأربطه بخيط وأطيره فى الهواء، فسمعت فجأة شخصًا يضحك من ورائى. نظرت و رأيت. كانت البالونة قد انفشت، وكنت أجرها على الأرض دون أن أنتبه وقد أصبحت شيئًا قذرًا، منكمشًا، لا شكل له،

وكان الرجلان القادما ورائى يشيران إلىَّ بسبابتهما، أما أنا فقد كنت فى هذه المرة نموذجًا للأراجوز البشرى. لم أستطع حتى البكاء. أطلقت الخيط، أمسكت بذراع أمى كما لو كانت طوق النجاة وواصلت سيرى. هذا الشىء القذر، المنكمش، عديم الشكل، كان فى الحقيقة الحياة الدنيا.

ذات يوم، فى هذه الفترة تقريبًا، خرجت فى رحلة إلى مافرا. لقد ولدت فى ازينهاجا، وعشت فى لشبونه، والآن، من يدرى أبإيماءة متواطئة من القدر، أبغمزة عين لم يستطع أحد حينها أن يفهمها، ساقونى لأتعرف على المكان الذى، بعد اكثر من خمسين عامًا، قرر، بشكل نهائى، مستقبلى ككاتب. لا أتذكر أن عائلة باراتا رافقتنى فى هذه الرحلة. حتى أننى أتصور أننا ذهبنا فى سيارة أحد معارف أبى، هذا الرجل الذى لم يترك أثرًا آخر لخطوته فى حياتنا، على ما أعرف. من هذه الرحلة القصيرة (لم ندخل الدير، وزرنا بالكاد الكنيسة المعظمة) أحتفظ فى ذاكرتى بالصورة الطازجة للتمثال المعلق لسان بارتولوميه، وهناك واصلنا سيرنا فى القاعة الثانية على يسار الداخل التى يسمونها، على ما أعتقد، فى لغة طقس القداس، جانب الإنجيل. كنت أسير أنا، بسنوات عمرى القليلة، تنقصنى معلومات عن عالم التماثيل، ولأن الضوء فى القاعة كان قليلا، فأغلب الظن أننى لم أكن لأنتبه إلى أن بارتولوميه المنكوب كان مخدوشًا، إلا بشرح المرشد وبلاغة إيماءته

المستحسنة عندما أشار إلى الثنيات الرخوة بجلد يدى الشهيد المسكين. ياللرعب. فى " مذكرة الدير " لا أتحدث عن سان بارتولوميه، لكن أكثر الاحتمالات أن ذكرى هذه اللحظة الحرجة ظلت واقفة بالمرصاد فى رأسى عندما، سنة ١٩٨٠ أو ١٩٨١، كنت أتأمل مرة أخرى القصر ضخم البناء و أبراج الكنيسة المعظمة، قلت لمن كانوا يصحبوننى : " أحب أن أدخلِ هذه البناية يومًا ما فى رواية ". لا أقسم على ذلك، فقط أقول إن هذا احتمال.

لابد أننى قمت بعدة رحلات وأنا مازلت فى حجر أمى وعمرى ما بين الثانية و الرابعة أو الخامسة. لم يكن منطقيًا أن يبقى أبى ، الفلاح السوقى الذى كان يحمل الفأس على كتفه والآن أصبح رجلا فى الخدمة العامة، رجل شرطة يعرف المعلومات الطازجة ويحمل سلة مليئة بالأخبار الجديدة عن العاصمة ليرويها، أقول إن يبقى فى لشبونة خلال إجازاته السنوية، فالتزيين بالملابس كان أكثر ما يتفاخر به أمام رفاق عمله القديم، فيتحدث أمامهم برقة، على الأقل منقيًا أفضل العبارات حتى لا يبدو ريفيا صرفا، وداخل الحانة الحميمة، بين كأسين، يهديهم بالإضافة لحكاويه النسائية، امرأة عاهرة تدفع جسدها مقابل حماية الشرطى، لكنه لم يعترف بذلك أبدًا، ولم يهدهم بائعة سهلة فى سوق ميدان فيجيرا. بعد ذلك بسنوات طوال، حكت لى جدتى أن أبوىَّ عندما كانا يسلمواننى لرعايتها كانت تجلسنى فى الغرفة

الخارجية، فوق بطانية مفروشة على الأرض، ومن هناك ، من حين لآخر، كان يصلها صوتى: " جدة، جدة " .. " ماذا تريد يا بنى ؟ " ، كانت تسألنى. وأنا ، باك، أمص أصبع الإبهام بيدى اليمنى (أهى يدى اليمنى ؟) أجيبها : " أريد قاقا " . وعندما تأتى هى لنجدتى يكون الوقت قد فات. " لقد تبرزت على نفسك بالفعل "، ضاحكة كانت تقول جدتى. وبالتالى، فعندما رحلت أمى إلى لشبونة ، وحملتنا معها أنا وفرانسيسكو فى ربيع، لم يكن عمرى سوى عام ونصف، ولم تكن معرفتى بالكلام شيئًا يذكر . وظنى، بالتالى ، أن الأحداث التافهة التى قمت بذكرها فى التو قد حدثت بعد ذلك ، أثناء ذهابنا لأزينهاجا لقضاء الإجازة السنوية، عندما كانت أمى تتركنى لجدتى جوزيفا لتذهب هى لتطفئ شوقها لصديقات شبابها، وتروى لهن جزءًا من تجارب حضارتها الخاصة، بما فيها، إن لم يكن الفخر والخزى يسيل لعابهن، تقوم بحكى السلوكيات السيئة المعتادة لزوجها الذى فقد صوابه مع شهواته الجنسية بالعاصمة اللشبونية. أظن لأننى كنت شاهدًا مذهولا وخائفا لهذه المشاهد العائلية التى يرثى لها، لم أرفع يدى أبدا ضد أية امرأة. وقد فادنى ذلك كتطعيم ضد الفكر الذكورى.

عندما صارت الأمور سيئة فى البيت، كان ذلك يوافق فترة مجىء قارئات الكوتشينة. أتذكر، وكنا مازلنا فى شارع فرناو لوبيس ، سلسلة الطقوس

بالابتهالات والبخور التى -كانت أمى تؤديها فى الغرفة، ملقية فوق نار الموقد بعض حبات البركة السوداء الصغيرة، المستديرة، بينما كانت تنطق تعويذة تبدأ بهذه الطريقة : "أيتها الرءوس، يا رءوسى هكذا... ". أما بقية التعويذة فلا أتذكرها، لكننى أتذكر رائحة تلك الحبات، تلك الرائحة المكثفة التى مازالت تعلق بأنفى حتى الآن . كانت تطلق دخانا له رائحة سقيمة، لكنها فى الوقت نفسه حلوة ومثيرة للغثيان، وتسبب الدوار لم أتوصل إطلاقًا لمعرفة ما هذه " الرءوس "، ربما كان طقسًا شرقيًا. أظن ، بذنب هذه الذكرى أننى لا أطيق طقس التطهير بأعواد البخور الشرقى التى صارت اليوم عادة تفسد رائحة البيت ، معتقدين بذلك أنهم يجعلونه أكثر روحانية.

ذات يوم، فى أحد حقول الشمام القريبة من الموتشاو دى بايكسو ، كنت برفقة خالتى ماريا الفيرا وجوزيه دينيس ، لا أتذكر لماذا، بالرغم من أننى على يقين أنها لم تكن صدفة بحتة، وتقابلنا مع إليسى وأبويها. أما ابن خالتى الحقود، الذى ما أن رأى الفتاة تفيض علىَّ اهتمامًا أكثر منه، حتى دِخله، كما هو متوقع، نوع من الغيرة القاتلة، فرمانى بشريحة شمام كان يأكلها. صوّبها ناحية وجهى، لكنها خابت، وطالت فقط قميصى. كما قلت قبل ذلك، كانت حياتنا معًا مشاجرة مستمرة، لكل سبب و لأى سبب، مثل الكلب والقط. لكننى الآن سأتحدث عن إليسى، فقد حان

الوقت لأتحدث عنها بتفاصيل لم أتحدث عنها بها حتى الآن . بعد هذه الواقعة بفترة (أعتقد فى الصيف التالى) ، ذهبنا نحن الثلاثة إلى فالى دى كافالوس ، حيث انتقلت عائلتها (كانوا قبل ذلك يقيمون فى البيارسا)، وبقينا، إن لم تخدعنى الذاكرة، فى بيتها . (لست على يقين مطلق من أن الأحداث جرت بهذه الطريقة، لكن، أيا كان الأمر، كانت هناك مناسبة، ربما هذه ، تعلمت فيها السير فى طريق أصل من خلاله من الموتشاو دى بايكسو إلى الفالى دى كافالوس ، قاطعًا من خلال الحقول طرقًا مختصرة وغير مباشرة). حسنًا، حدث بعد أسبوع أو اثنين أن أقيمت احتفالات فى هذا المكان، وقررت وقتها أن أرى إليسى مهما كلفنى الأمر . كان عمرى حوالى خمسة عشر عامًا، وكنا فى الصيف الذى سأتم بعده السادسة عشرة . لقد كتبت فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب بداية بعض الأحداث عن المغامرة العاطفية، مثل عبور نهر التاجو، مركب جابرييل الراسى على الضفة والمسنود قاعها بأحجار كثيرة من تحتها، وضوء الغسق النصفى، و طريق الذهاب والعودة الطويل. لن أكرر ما قلته سلفًا، وما يتحتم علىَّ الآن بالتالى هو أن أقلب العملة لأريكم وجهها الآخر. كان هناك رقص فى الميدان ، وكانت الفرقة الموسيقية بهذه الأرض تعزف بحماس خاص لهذه المناسبة. تحدثت مع إليسى، التى استقبلتنى بترحاب لا إفراط فيه، رقصت معها (إذا كان من الممكن أن

نسمى هذا رقصًا، فهى كانت توجهنى أكثر مما كنت أوجهها، ولدَّى شكٌ، حتى لا أقول إننى متيقن، إنها فى لحظة معينة، أظهرت لصديقة لها كانت ترقص بجانبنا عدم سرورها بإيماءة مستسلمة). فى النهاية، متأخرا (اليوم أعرف أن هذه الإيماءة هى التى جعلتنى أتخلى عن إليسى للأبد) ودعتها مهزومًا. مازلت إلى اليوم أسأل نفسى كيف استطعت ألا أتوه فى الليل الملىء بالهمهمات و الأشباح ، عندما كنت من سنوات قليلة مضت أرتجف خوفًا من الظلام والحيوانات الخرافية التى ينجبها . كان الكوخ الخشبى البدائى بسقفه المكّون من القش المنهوك ، الذى احتميت به فى نهاية الطريق ، هو المكان الذى اعتاد الخال فرانسيسكو دينيس أن يرتاح فيه فى فترات تجواله الليلى بالمزرعة. وهذا هو ما عرفته فقط بعد ذلك. جائعا، بحثت داخل الكوخ مجسسًا عن شىء يؤكل، فلم أجد سوى هذه الشريحة المذكورة من خبز من الذرة، بعفنها، حيث تحققت من ذلك عندما أكلت فى الصباح الجزء الذى تبقى، لم يكن للسرير الصغير مرتبة، لكن مجموعة أوراق الشجر التى مددت فوقها جسدى المنهك كانت لها رائحة طيبة خلدت للنوم هذا الوقت القصيّر قبل دخول الفجر، وفى الصباح ظهر الخال دينيس. سمعت نباح كلبه الذى يرافقه دائمً. و كان يدعى بيلوتو. فخرجت من الكوخ يقظًا. وعندما وصلت إلى الموتشاو دى بايكسو حكيت مغامراتى لخالتى ماريا الفيرا ولجوزيه

دينيس، الذى استمع لى يائسًا، حيث كنت حريصًا أن أهمل أى تفاصيل توشى بالخزى الناتج عن فشلى العاطفى. أرادت إليسى أن أسحبها لأراقصها ، وأنا لم أعرف ذلك. كان الترزى أكثر حظا منى . ما ينقصنى معرفته، بالرغم من أننى لن أعرف ذلك أبدًا، هل كانت هى أيضًا محظوظة؟.

لم أكن ابدًا صيادًا ماهرًا . كنت أستخدم ، مثل آى صبى فى نفس عمرى وله ما لى من إمكانات متواضعة، صنارة عادية بشص ورصاصة و غماز او ذبابة مربوطين بخيط الصيد، وهى صنارة لا تشبه إطلاقًا الماكينات الحديثة التى ربما ظهرت هنا متأخرا وأستطعت أن أراها فى يد بعض الصيادين المحليين الهواة عندما أصبحت ناضجًا وتركت أوهام الصيد . وكنتيجة لما قلته ، كان صيدى دائمًا ينحصر فى عدة سمكات بساريا ، وقلة من البربونى الصغير ، وكنت أقضى ساعات طويلة بلا فائدة الحق أننى لم أقض الوقت بلا فائدة، لأننى بدون أن أنتبه كنت " أصيد " أشياء لم تكن فى المستقبل أقل أهمية بالنسبة لى: (صور، روائح، أصوات، نسيم، أحاسيس). كنت أجلس فى الشمس، عندما لا تكون شديدة الحرارة، أو فى ظل صفصاف مستح، فى انتظار أن تأكل أية سمكة. عامة، جالسًا على ضفاف النهر، كنت أقوم بالصيد فى " نهر قريتى "، الألموندا، فى آخر النهار لأن فى الحر الشديد كنا نعلم أن الأسماك كانت تختبئ بين الأحجار و لا تأتى للشص. فى أحيان

أخرى كنت أنتقل من جانب لآخر عند مصب نهرنا، وفى مرات معدودة كنت أجدف صوب مكان بعيد، كنت أعبر التاجو ناحية الجزء الجنوبى وهناك أستقر. أحتمى بمقاعد من الرمال كما لو كنت تحت ظل كرسى العرش، وكان ذلك اشد ما يعجبنى. كان الصيادون المحنكون بالمنطقة يتفاخرون بأن لهم وسائلهم الخاصة، استراتيجياتهم وفنونهم السحرية، وكانوا عامة يستمرون موسمًا ليغيروا وسائلهم بوسائل أخرى، باستراتيجيات أخرى، بفنون سحرية أخرى تكون أكثر فاعلية من السابقة. لم أصل أبدًا للاستفادة من كل تلك الوسائل. آخر الوسائل التى أتذكرها هى مسحوق شجيرة الورد الشهيرة (الشك الذى كان ينتابنى حينها، ومازال ينتابنى إلى الآن، هو معرفة أى جزء من شجيرة الورد كان يسحقونه المحنكون فى الصيد: أريد أن أعتقد أنه الزهرة)، والذى بفضله، مسبقًا كان يلقى فى الماء كنوع من الطعم الشعرى، كانت الأسماك تقع كالزرزور، وأعذرونى على استخدام هذا التشبيه الخاطئ. أما أنا المسكين فلم أستطع أبدًا أن ألمس بأصابعى الحقيرة هذا الذهب المسحوق. وهذا بالطبع هو سبب الجمود الذى عانيته أمام سمكة البرّبونى التى تعد الأكبر فى تاريخ السمك بالتاجو (بالرغم من أنها لن تختفى للأبد). سأروى بكلمات بسيطة الواقعة المؤسفة. كنت قد خرجت بعدتى للصيد فى مصب نهر الألموندا ، وهى المنطقة التى كنا نسميها " فم النهر "،

حيث كان الألموندا فى هذه الفترة يعبر من لسان ضيق بالرمل لنهر التاجو، هناك كنت، وكانت الشمس فى لحظات الغروب، بدون أن يعطى الغماز أية إشارة لحركة ما تحت الماء، وفجأة، وبدون أن يغمز برجفة مثيرة تعلن لمسة السمكة التى تأكل فى الشص، غطس فى الأعماق، على وشك أن ينتزع من يدى الصنارة. سحبتُ، وسحبتنى السمكة، لكن المعركة لم تستمر طويلا . فالخيط لم يكن محبوك الربط، أو كان ذائبًا وبشدة عنيفة أخذت السمكة كل شىء، الشص والغماز والرصاصة. تخيلوا الآن خيبة أملى. وهناك، على ضفاف النهر حيث من المفترض أن تختبئ السمكة، كنت أنظر من جديد للماء الهادئ، وفى يدى عصا الصنارة المضحكة التى لم يعد لها فائدة، بدون أن أعرف ماذا أفعل. حينها خطرت ببالى أكثر الأفكار عبثاً فى حياتى كلها: أن أهرول إلى البيت، أسلح الصنارة مرة أخرى وأعود لأصفى حساباتى بشكل نهائى مع هذه السمكة الضخمة. حسنًا، كان بيت جدى يقع على بعد أكثر من كيلومتر من المكان الذى كنت فيه، وكان من الضرورى أن أكون أحمق فى كل شىء (أو ساذجًا، بكل بساطة) حتى يكون لدى الأمل الهائل فى أن سمكة البربونى ستظل هناك فى انتظارى، مسلية نفسها بهضم، ليس فقط الطعم، وإنما أيضًا الشص والرصاصة، مرورا بالغماز، عندما يتأخر وصول توزيع الآكل الجديد. وبالرغم من كل هذا، ومخالفة لكل منطق وإجماع، خرجت منطلقًا

صوب ضفاف النهر، ثم داخل الحقل عابرًا أشجار الزيتون وجدامات القمح لأختصر الطريق، حتى اقتحمت البيت لاهثًا، وهناك رويت لجدتى ما حدث بينما كنت أعد الصنارة ، فسألتنى هى إن كنت أعتقد أن السمكة مازالت هناك ، لكننى لم أسمعها، أو لم أرد أن أسمعها، أو لم أستطع أن أسمعها. عدت إلى المكان، كانت الشمس قد غربت، ألقيت الشص فى الماء، وانتظرت. لا أعتقد أن هناك صمتًا فى الدنيا أعمق من صمت الماء . شعرت به فى هذه اللحظة ولم أنسه طيلة حياتى . ظللت هناك حتى لم أعد أميز الغماز الذى كان التيار يهزه قليلا ، وفى النهاية ، بالحزن المغروز فى نفسى ، قمت بلف الخيط وعدت للبيت. هذه البربونية عاشت طويلا، ولابد أنها ، بسبب القوة التى أظهرتها، حيوان بدين، لكن المؤكد أنها لن تموت وهى عجوز، فشخص ما لابد أن يصطادها فى يوم ما . وبشكل ما، بشصى المشبوك فى خياشيمها ، ستحمل ماركتى، فهى ملك لى.

ذات يوم ، كنت أصيد فى مصب نهر التاجو، فى سكينة وانسجام لأول مرة مع جوزيه دينيس (لدى شك فى أن أكون فعلا فى مصب النهر، حيث إننا لم نمش كثيرًا لنقترب إلى هناك، ولا كنا فى الاتجاه الذى يوصل له، وأغلب الظن أنه عبارة عن بركة شديدة العمق لا تستطيع حرارة الشمس أن تجففها وهناك جاءت مجموعات من الأسماك مدفوعة بشدة الفيضانات ، وكنا قد اصطدنا عينتين صغيرتين،

عندما ظهر صبيان فى نفس عمرنا تقريبًا، ربما كانوا من الموتشاو دى سيما ولهذا لم نكن نعرفهما (ولا كان من المنصوح به معرفتهما)، بالرغم من أنهما يعيشان على بعد قوسين أو أدنى. جلسا من ورائنا وبدأ الحديث المعتاد: " ها، أيأكل السمك أم لا ؟ "، ونحن من كنا هكذا هكذا، لم نكن أبدا على استعداد أن نثق فيهما على أية حال ، وحتى لا يسخران منا، قلنا إننا قد اصطدنا سمكتين وإنهما فى السلة. وما كنا نسميه سلة كانت عبارة عن علبة من الصفيح ، أسطوانية الشكل، لها غطاء محبوك وسلك مقوس الشكل يساعد على تعليق العلبة على الذراع. وهذا النوع من السلال، التى تعلق عادة على الكتف بعصا، كان الشىء الذى يضع فيه الفلاحون طعامهم عند ذهابهم للحقل ، شوربة طماطم، فى موسمها، شوربة فاصوليا، إن وجدت، حسب إمكانات كل فلاح . وبعد أن أظهرنا أننا لسنا أحمقين كما قد يبدو، أعدنا تركيزنا فى الغماز الثابت فى الرصاصة فوق سطح الماء . كان هناك صمت هائل، ومر الوقت، وبعد وقت طويل نظر أحدنا خلفه ولم نجد الصبيين. أصبنا بسكتة قلبية ومضينا نفتح العلبة. وبدلا من السمكتين وجدنا شظيتين تطفوان على وجه الماء. كيف استطاع المجرمان، بدون أدنى صوت، أن ينتزعا الغطاء ويسحبا السمكتين ويأخذاهما، هذا هو الأمر الذى إلى اليوم لم أستطع فهمه. عندما وصلنا للبيت وحكينا ما حدث لنا، انفجرت خالتى ماريا الفيْرا

والخال فرانسيسكو دينيس من الضحك علينا. ليس من حقنا أن نشتكى من شىء ، فهذا هو ما كنا نستحقه .

تأمرنى الحقيقة أن أعترف أن مواهبى كصائد حيوانات كانت ما أقل من مواهبى كصياد سمك . مرة واحدة اصطدت فيها عصفورا بنبلة ، وبقليل من الاقتناع قتلته وفى ظروف حزينة، فى ساعة فضفضة وتوبة، لم أقاوم حكاية هذه الجريمة الشنيعة. مع ذلك، إن كان فن القنص لم يسعفنى لصيد طيور السماء، فقد أسعفنى لصيد ضفادع نهر الألموندا، التى كنت أهلك منها عددًا عظيمًا بنبلتى سواء بمهارتى فى الرماية أو بقسوة قلبى عليها . فالحق أن وحشية الطفولة لا حدود لها (وهذا هو السبب العميق لوحشية البالغين التى لا حدود لها أيضًا): فأى أذى ممكن أن تسببه لى هذه الضفادع البريئة ، الجالسة باسترخاء لتتشمس فى الوحل المتموج، مستمتعة فى الوقت نفسه بالدفء الذى يأتيها من فوقها و الطراوة التى تصلها من تحتها ؟ كنت ألقيها بالحجر، فيصل إليها بالتمام، فتتشقلب الضفادع التعيسة آخر شقلبة فى حياتها وتبقى فى مكانها، مرفوعة الأرجل. فيقوم النهر الطيب تلك الطيبة التى لم يكن يعرفها كاتب هذه المجازر، بغسل الدماء القليلة النازفة، بينما أنا،

المنتصـر، وبدون أن أدرك حمـاقـتى، كنت أبحث عن ضحايا جدد بين الماء الصاعد و الهابط.

من الطريف أننى لم أسـمع أحـدًا يتـحـدث عن " الخـيـاطة " فى أمـاكن أخـرى ومع أناس أخـرين. وبما أننى كنت عقـلانيًا من سن مـبكرة ، كمـا قد بـرهنت على ذلك فى تلك السنوات الرقـيقـة (يكفـى أن أتذكـر واقـعة الـقـداس المارقـة، عنـدما كـانت تدق الأجـراس، كنت أرفع رأسـى بميل لأرى مـا كانوا يريدون ألا أراه)، فكرت، وأعتقد أننى أتذكر أننى أشرت لأمى بذلك، إن الأمـر ليس إلا "حـشـرة الخشب"، أو أية حـشـرة اخـرى مـشابهـة، وكـانت فكرة فى غيـر مـحلهـا لأنه لم يكن من الممكن أن تعـيش " حـشـرات الخـشب "(تلك الحـشـرات الـقــديمــة منذ الأبد) فى داخل المونة الخــشـنة لهـذا الزمن، الـصـعـبـة التـآكل، بالرغم من أنهـا ليـست فى خشـونة الأسـمنت الخـرسـانة الحـديث. مـاذا كـان اذاً؟ فى لحظة مـحـددة ، داخل صـمت البـيت، كـانت أمى تقـول، كمـا لـو كان أكثـر أمـور الدنيـا طبـيـعـيـة : " إنهـا الخيـاطة مـرة أخـرى". دنوت بإذنى إلى مكان الحـائط التى أشـارت إليه، وهنـاك سمـعت، أقسـم إننى سـمـعت، الصوت المميز لماكينة خياطة ، هذه الماكينة ذات البدال (لم يـكن يوجـد نوع آخــر)، وأيضًا، مـن حــين لآخــر، أسمع صـوتًا آخـر مميزاً، مـسـحـوبًا، صـوت الـفـرملة، عندما تضع الخياطة يدهـا اليمنى على العـجلة لتوقف حركة الإبرة. سمعت تلك الأصوات فى لشبونة، وأيضًا

فى أزينهاجا، فى بيت جدى، وكانت جدتى جوزيفا تقول لخالتى ماريا الفيرا : " هنا توجد الخياطة، هنا مرة أخرى ". كانت الأصوات التى تخرج من بياض الحائط البرىء الصامت هى نفسها . وكان التفسير الذى قدموه لى حينها رائعًا، ولا يمكن التشكيك فيه، وهو أنه نتيجة لقدر خياطة كافرة كانت قد عملت يوم أحد، وبسبب هذا الذنب ، تم الحكم عليها (وعن هوية القاضى لم يبق شىء مسجل) بحياكة الملابس على الماكينة للأبد داخل حوائط المنازل. هذا الهوس بالعقاب بلا ألم ولا شفقة لأى مسيحى يحتاج العمل يوم الأحد، هكذا حكوا لى أيضًا، نال ضحية أخرى فى الماضى السحيق، وهو رجل القمر، هذا الذى ينقل، كما يمكن أن نتحقق من ذلك بوضوح من مكاننا، حزمة حطب على ظهره، وأنه تم تعليقه فى القمر، حاملا هذا الحمل الأبدى، ليكون عبرة للفاسقين الذين يشعرون أنهم يوسوس إليهم ليسيروا فى طريق الضلال. عائدًا إلى " خياطة " الحوائط، لا أعرف ماذا فعل الشياطين فى الدنيا لتختفى تلك المرأة بغير تروية، فمنذ أكثر من سبعين عامًا لم أسمع صوتها ولم أجد أحدًا يحدثنى عنها. ربما تم تخفيف العقوبة عنها. وإذا كان الأمر كذلك فأنا أتمنى أن تسير نفس الرحمة على رجل القمر. فالرجل حقًا تعبان. وبالإضافة لذلك، لو شالوه من مكانه، لو سحبوا هذا الظل، سيضىء القمر أكثر ونخرج جميعًا فائزين.

كانوا يطلقون على بيت جدى، كما قد رويت قبل ذلك " البيت الجميل " واسم المكان الذى كان يقع فيه: التقسيمات وربما سمى كذلك؛ لأن شجر الزيتون القليل و المتناثر الذى يقع فى مواجهته (والذى صار بعد ذلك ملعب كرة قدم ثم أصبح مؤخرًا حديقة) كان ينتسب لعدة ملاك : كما لو كانت مواشى و ليست أشجارًا، وفى جذوع الأشجار كانوا يكتبون الحروف الأولى من اسماء أصحابها. كانت البناية من أكثر البنايات بدائية فى ذاك الحين، من الطوب اللبن، ومن طابق واحد، أكثر علواً من الأرض بمسافة متر تقريبًا كإجراء احتياطى فى مواجهة فيضان النهر، كما كانت الواجهة العمياء خالية من أية نافذة، وليس بها سوى المدخل الذى يفتح فيه الباب التقليدى. كان مقسما إلى قسمين رحبين: الغرفة الخارجية، هكذا تسمى لأنها تطل على الشارع، و بها سريران وعدة صناديق إن لم تخنى الذاكرة فعددها ثلاث ، بعد ذلك نجد المطبخ، وكلا القسمان يعلوه سقف به فتحات وبأسفله أرضية من التراب. ليلا، عندما كنت أطفئ اللمبة الجاز، كنت أستطيع دائما تمييز حزام الكوكب السيار فى الفترات الوعرة ، ربما كل شهرين أو ثلاثة، كانت جدتى تغطى أرضية الغرفة الخارجية بالطين ، وهو ما كنا نسميه التبليط بالطين. من أجل ذلك كانت تذوِّب كمية الطين المطلوبة فى دلو الماء وبعدها، فى وضع القرفصاء ، وباستخدام قطعة قماش كانت تتشرّب فى عملية الخلطة، وبتحريك نفسها من الأمام

للخلف، كانت تفعل بقطعة القماش هذه، من جانب لآخر، حركات كبيرة بذراعيها لتغطى كل الأرضية بطبقة جديدة. وقبل أن يجف الطين كلية، كان يحرم علينا أن نطأه. مازالت رائحة هذا الطين المبلل فى أنفى، وفى عينى لون الأرضية الحمراء التى كانت تنطفئ رويدًا رويدًا، كلما تبخر الماء . على أن أتذكر أن أرضية المطبخ لم نبلطها أبدًا بالطين بدون أية مبالغة ، نعم كنا نكنسها. لكن تبليطها بالطين، أبدًا . بالإضافة للسريرين والثلاثة صناديق، الموجودين فى الغرفة الخارجية، كانت توجد ترابيزة عادية من الخشب، أقصد بلا دهان، بأرجل طويلة، وفوقها كانت توجد مرآة قديمة. مصنفرة وبها عيوب فى قشرة الزنبق، وساعة حائط وبعض الأشياء التافهة التى لا قيمة لها. (بعد سنوات طوال ، بعد أن تخطيت الأربعين بسنوات ، اشتريت من محل أنتيكات بلشبونة ساعة شبيهة بتلك الساعة ومازلت أحتفظ بها، كشىء حميمى مرتبط بالطفولة). كانت المرآة جزءًا من التسريحة الصغيرة البدائية، الخالية ايضا من الدهان، بدرج فى وسطها ودرجين صغيرين فى جانبيها، وهى أدراج ممتلئة بأشياء كثيرة لا طائل من ورائها، وتمر عليها السنون بلا تغييرات مرئية لمحتواها . وفوق الترابيزة، الملتصقة بالحائط الأبيض، كمجرة من الوجوه، كانت تجتمع صور العائلة: ولم يخطر ببال أحد أن يوزعها كديكور فوق حوائط الغرفة الخارجية مقشرة الطلاء. كانت الصور هناك

مثل صور القديسين فى المذبح، كقطع من صندوق رفاتهم الجماعى، ثابتة وغير قابلة للتغيير. كان يوجد سريران، ترابيزة كانت تعرج فوق الأرض الوعرة وباستمرار فى حاجة لوضع شىء تحتها حتى لا تهتز، كرسيان مدهونان باللون الأزرق، مستوقد «بدمية المنزل» فى العمق ، كان البيت صورة مثالية للبيت المقتر، تلك الصورة التى اختفت، مثل كل الأشياء الأخرى، عندما امتلك البيت خالى مانويل عقب وفاة جدتى، وهو أصغر أخوالى، والذى كان شرطيا فى الأمن العام مثل أبى، حيث قام بتشييد بناية مكانه، تلك البناية التى لا يطيقها شخص متوسط الذوق، لكنها كانت تبهره هو. أبدًا لم أسأله هل هو راض عن عمله هذا، لأن باتباعنا تقاليد العائلة، كف كل منا عن الحديث مع الآخر. أتخيل أن " الدمية "قد تكون تمثيلا موجزًا لروح البيت الوثنية، فالدمية تشبه آلهة الرومان (أتذكر عبارة كانت تقال بتكرار فى هذا الزمن "العودة إلى آلهة الرومان"، وهى ما كانت تعنى باختصار " العودة للبيت")، وحسب ما يمكن أن يلاحظ فى النقش، قد تكون الدمية مصنوعة من أحجار مربعة ، معدة بشكل ما لتشكل ، وهى داخل الحائط، جزءين متصلين من أسفل، يشبهان الجزء العلوى للجذع، وفوقهما، فى الوسط، جزء يمثل الرقبة، والجزء الثالث، الموضوع بميل ، يمثل الرأس . كانت جدتى تسمى هذا الشكل " دمية المنزل " وقد سررت بمعرفة المعلومة التى عثرت لها بعد ذلك

بسنوات ، بفضل فضائل القراءة المعرفية، ما أعتقده تفسيرًا. أحقًا كان تفسيرًا؟. كان المستوقد صغيرًا، يمكن أن يأوى إليه شخصان فقط، فى أغلب الأحوال أنا وجدتى. وكالعادة، فى أيام الشتاء، كان الجزء الأمامى من جسدينا يشوى أمام المستوقد، بينما الجزء الخلفى يهلك من البرد، هذا البرد الذى يجمد الماء داخل الدوارق اثناء الليل فيتحتم علينا فى الصباح إزالة طبقة الثلج المكونة داخله بهراوة. وعندما يشتد البرد بقسوة ، لم يكن هناك فرق كبير بين البقاء فى البيت أو خارجه، كان باب المطبخ الذى يطل على الحديقة الصغيرة قديمًا جدًا، كان سياجًا من الحديد أكثر منه بابا بشقوق كانت تسع يدى، لكن أكثر الأمور غرابة أنه استمر على حالته هذه خلال سنوات وسنوات . كان كما لو كان قديمًا منذ وضعوه فى المفصلات . فقط بعد ذلك بفترة ، عندما توفى جدى جيرونيمو (لقد رحل عن عالمنا فى ١٩٤٨) استمتع الباب ببعض الإصلاحات ، حتى لا أقول ترقيعات بسيطة. وبالرغم من كل شىء ، أعتقد أنهم لم يبدلوه أبدًا . كان هذا البيت، أكثر البيوت تواضعًا هو المكان الذى آوى جدىَّ بعد زواجهما، كانت هى، كما كان معروفًا وقتها، أجمل فتيات أزينهاجا، أما هو فكان الملقى فى دار الرحمة للقطاء بسانتاريم، و كانوا يسمونه " العصا السوداء " بسبب سحنته السمراء . وفى هذا البيت عاشا للابد. حكت لى جدتى أن جدى قضى ليلة دخلته عند باب البيت، فى رطوبة الليل،

بعصا فوق ركبتيه، فى انتظار المنافسين الغيورين الذين أقسموا على المجىء و إلقاء الحجارة على السقف المغطى بالخرق. وفى النهاية لم يظهر أحد، وبينما كان القمر يسافر طوال الليل فى السماء (اسمح لى أن أتخيله مسافرًا)، كانت جدتى مضطجعة فى سريرها، بعينين مفتوحتين، فى انتظار زوجها. وعانق كل منهما الآخر عندما تبين الخيط الأبيض.

لقد حان الوقت لأتحدث عن الرواية الشهيرة " ماريا، حورية الغابتين"، تلك الرواية التى أزرفت دموع عائلات الأحياء الشعبية بلشبونة فى عقد العشرينيات. لقد نشرت، إن لم تخنى الذاكرة، فى مطبوعات رومانو تورّيس، وكانت مقسمة إلى أجزاء صغيرة أو كراسات أسبوعية من ست عشرة صفحة، وكانت تسلم فى تواريخ محددة إلى المشتركين فى بيوتهم. كانوا أيضًا يسلموننا هذه الأجزاء الأسبوعية فى شقتنا بالطابق الأخير بشارع لوس كافاليروس ٧٥٣.

لكن، فى تلك الأونة، باستثناء الومضات القليلة التى بقت فى ذاكرتى نتاج خط الحروف على السبورة والتى لم تكن كافية إطلاقا ، لم تكن بدايتى فى فن قراءة الكتابة الهيروغليفية الحساسة قد بدأ بعد. أما من كانت تأخذ على عاتقها قراءة تلك الأجزاء لنا، وبصوت عال، لتكون قدوة لى أنا و أمى، الأميان، أنا لفترة من الزمن، وأمى للأبد ، فقد كانت أم فليكس،

تلك السيدة التى لا أستطيع تذكر اسمها حتى ولو أمعنت النظر فى ذاكرتى . كنا نجلس ثلاثتنا حتمًا على المقاعد الصغيرة، القارئة و المستمعين، وكنا نترك أنفسنا للطيران على أجنحة الكلمات لنصل إلى هذا العالم المختلف عن عالمنا. ومن القصص روت لنا المصائب الألف التى وقعت على مدار أسابيع، وبلا رحمة، على رأس ماريا التعيسة، ضحية كراهية وحسد منافِسة لها تتسم بالقدرة و المكر، وأتذكر من تلك القصص تلك الواقعة التى حُفرت فى ذاكرتى للأبد. على مدار مصائب الدهر المختلفة التى مع الوقت بددتنى، بالرغم من أنه، على أية حال، قد لا يهم تحليلها هنا، كانت ماريا محبوسة داخل سراديب مظلمة بقصر عدوتها اللدودة، وكانت هذه، كما لو كانت مازالت فى حاجة لتؤكد لقرائها المحترمين ما يعرفونه من الأحداث السابقة، حيث كانوا يعرفون بزيادة، اعنى، الطبع الشرير الذى كانت مزودة به منذ مولدها، فاستغلت أن الصبية المسكينة كانت كما يقال ماهرة فى فن التطريز وفنون أخرى نسائية، فأمرتها، تحت تهديدها بمعاقبتها بأشد العقاب الذى عرفته ولم تعرفه بعد، أن تعمل من أجلها. وكما نرى، فبالإضافة لكونها مؤذية، فهى أيضًا مستغلة. حسنًا، فمن بين القطع الجميلة التى طرزتها ماريا خلال فترة حبسها نجد الرداء الساحر الذى أعجبت به صاحبة القصر وقررت الاحتفاظ به لاستعمالها الخاص. حينئذ، ونتيجة لإحدى الصدف الغريبة التى تحدث

فقط فى الروايات وبدون مساهمتها لن يقوم أحد بمهمة كتابتها: ذهب الفارس الهمام، الذى كان يعشق ماريا وهى تبادله العشق، فى زيارة هذا القصر، بدون أن يمكن أن تعبر برأسه فكرة أن يجد محبوبته بداخله محبوسة تثقب أصابعها أثناء التطريز داخل سجن مظلم. صاحبة القصر، التى كانت قد اختارت العاشق لنفسها منذ زمن طويل، وهو سبب المنافسة الرهيبة التى أسلفت الإشارة إليها عاليه، قررت أن تجذبه إليها هذه الليلة . وكما فكرت فعلت. وفى ساعة متأخرة من الليل دخلت غرفة نوم الضيف خفية وهى ترتدى هذا الرداء الساحر، كانت مثيرة و معطرة، بوسعها أن تذهب بعقل كل قديسين ملكوت السماء ، فما بالنا بفارس ملىء بالطاقة، بقوة الحياة ، مهما كان عاشقا لماريا النقية والمعذبة وبالفعل، بين ذراعى تلك السيدة الخليعة التى رافقته فى السرير، وفوق نهديها المسكرين والمكتنزين، واللذان كانا يظهران بلا أدنى شك عبر الدانتيلا، كان الفارس على وشك السقوط، مستسلماً، فى الهاوية الجذابة، وهنا فجأة، وبينما كانت الغادرة تستعد لغناء أغنية النصر، تقهقر الفارس كما لو قد لدغه الصل المختبئ بين نهدى كليوباترا، ووضع يده المرتجفة على التطريز، وانتزعه، مناديًا بصياح : " ماريا ، ماريا " . ماذا حدث ؟ أظن أنه من الصعب تصديق ما حدث ، لكن هذا ما كان مكتوبًا. ماريا ، داخل سجنها ، كالغريق الذى يلقى زجاجة فى الماء فى انتظار أن تفهم الرسالة يد منقذة

فتأخذها، طرزت فى الرداء طلب النجدة كاتبة اسمها و المكان المسجونة فيه. عندما قرأ الرسالة، أنقذته من الخزى فى اللحظة الأخيرة، فصد بعنف السيدة الشبقة وخرج مهرولا لينقذ بتولته ومحبوبته ماريا من الأسر. لابد أن تلك الأيام تقريبًا هى التى انتقلنا فيها إلى شارع فرناو لوبيس ، لهذا انتهت لنا هنا قصة " حورية الغابتين "، حيث إن المشتركة كانت أم فليكس. أما نحن فقد كنا فقط نستفيد من القراءة الإسبوعية المجانية، ولم يكن ذلك شيئا قليلا، خاصة بالنسبة لى، فذكرى هذه الواقعة الدرامية والمضطربة، بالرغم من صغر سنى حينها ، لم تمح أبدًا من ذاكرتى.

سريعا ما تعلَّمت القراءة. وبفضل الاهتمام بالتعليم الذى بدأت أتلقاه فى المدرسة الابتدائية، الواقعة بشارع مارتينس فيراو، تلك المدرسة التى أتذكر منها بالكاد مدخلها وسلمها دائم الظلمة، أصبحت، بلا مرحلة انتقالية تقريبًا، معتادا وبشكل منتظم على المستويات العليا للغة البرتغالية فى صفحات جريدة الأخبار، وهى الجريدة التى كان يحضرها أبى يوميًا إلى البيت وأعتقد أن أحد أصدقائه كان يهديها له، صديق يعمل موزع جرائد كثيرة المبيعات، وربما صاحب كشك. أما الشراء، فلا أعتقد أنه كان يشترى، وذلك بسبب عدم بقاء مال فائض عن حاجتنا لننفقه فى مثل هذه الأبهة. ولأعطيكم فكرة واضحة عن وضعنا، يكفى أن أقول إنه خلال سنوات، وبانتظام موسمى مطلق ، كانت أمى تحمل البطاطين إلى دار الرهن عندما ينتهى فصل الشتاء ، فقط من أجل الحفاظ عليها ، وتدخر السنت فوق السنت وهكذا تستطيع دفع الفوائد كل شهر وكذا دفع المبلغ النهائى، عندما تبدأ قرصات البرد الأولى . وبشكل جلى، لم أستطع أن أقرأ بطلاقة جريدة الصباح الخطيرة حينذاك، لكن لدى شىء شديد

الوضــوح : كــانت أخــبــار الجــريدة مكتــوبة بنفس الخطوط (كنا نســمــيــهــا حــروفًا لا خطوطًا) التى أسماؤها ووظائفها و علاقاتها المتبادلة قد تعلمتها فى المدرسـة. بحيث إننى بمجرد أن عـرفت أتهـجى، كنت أقـرأ، بالرغم من أننى لم أكن أفـهم مـا أقـرؤه. كـان تعـرفى أثناء قراءة الجـريدة على كلمـة قـد عـرفتـهـا بمثـابة إشـارة فـى الطريق تقـول لى إننى أسـيـر بشكل جيد فى الاتجاه الصحيح . وهكذا، بهذه الطريقة غير المعتادة، جريدة وراء جريدة، شهر وراء شهر، متصنعا عـدم اسـتـمـاعى لسـخـرية أهـل البـيت ، الذيـن كـانوا يتسلون علىَّ عندمـا يروننى أنظر فى جـريدة كـمـا لو كانت جدارًا، جـاءت لحظتى التى تركـتـهم فـيـهـا لمدة نصف ساعة بلا كلمـة، عندما، ذات يوم ، ومرة واحدة، قـرأت بصـوت مـرتفع ، وبدون أن أتلعـثم ، مـضـطـربا لكننى منتصر، عدة أسطر متتالية. لم أكن أفهم كل ما أقرؤه، لكن لم يكن لهذا أهمية. وبالإضافة لأبى وأمى، اللذين كانا قبل ذلك مرتابين، والآن مستسلمين كانت توجـد عـائلة باراتا. حسنًا، مـا حدث هـو أن فى هذا البيت، الخالـى من الكتب، وجدت كتابًا ، كتابًا واحدًا، ضـخـمًا و مـجلدًا، بلا خطأ، أزرق سـمـاوى اللون ، كان عنوانه " اتوتينيجرا دو موينيو "، وكان مؤلفه، إذا كانت الذاكرة مازالت تصيب ، إميل ريتشـيبورج، هذا الاسم الذى أعـتـقـد أن كتب الأدب الفرنسـى لم تهـتم به بما فيه الكفاية، ولا حتى أكثرها عمقا، وإن كانت اهتمت به بقدر ما، فهو شخص ماهر فى فن الكشف بالكلمة

عن القلوب مرهفة الحس والسنتمنتالية المتهورة. وكانت صاحبة هذه الجوهرة الأدبية المطلقة، بكل الأدلة الظاهرة على نشرها من قبل فى أجزاء، كانت كونسيبسيون باراتا، التى كانت تحتفظ به ككنز فى درج الكومودينو، مغلفة إياه بغلاف من الحرير، له رائحة النفتالين. وأصبحت هذه الرواية أولى أكبر تجاربى الأولى كقارئ كنت مازلت بعيدًا جدًا عن مكتبة قصر لاس جالبياس، لكننى قد خطوت أولى خطواتى لأصل إليها. وبفضل مجاورة أسرتى لأسرة باراتا سنوات طوال، وجدت وقت فراغى كثيرًا لأقرأ الكتاب حتى نهايته وأعود لقراءته مجددًا. مع ذلك، وبعكس ما حدث لى مع ماريا، حورية الغابتين، لا أستطيع، مهما بذلت من جهد، أن أتذكر قطعة واحدة من الكتاب. ربما لا يحب إميل ريتشيبورج قلة التقدير هذه، هذا الرجل الذى أعتقد أنه كتب " توتينيجرا " بحبر لا يمكن أن يمحى. لكن الأمور لم تبق هناك. فبعد ذلك بسنوات وصلت لاكتشاف، بمفاجأة شديدة، إننى قد قرأت أيضا لموليير وأنا فى الطابق السادس بشارع فيرناو لوبيس. فذات يوم، ظهر أبى فى البيت وبيده كتاب (ليس بوسعى أن أتخيل كيف حصل عليه) لم يكن أكثر و لا أقل من كونه دليل محادثة من البرتغالية للفرنسية، بصفحات مقسمة لثلاثة أعمدة، الأول من اليسار بالبرتغالية، الثانى فى الوسط بالفرنسية، والثالث على اليمين كان يمثل نطق كلمات العمود الثانى. كان الدليل يحتوى على المواقف

المختلفة التى قد يتعرض لها البرتغالى الذى يدرس الفرنسية بمساعدة من دليل المحادثة (داخل محطة قطار، فى صالة الاستقبال بفندق، فى وكالة لتأجير السيارات فى ميناء بحرى، عند ترزى، عند شراء تذاكر مسرح، عند تجريب بدلة عند ترزى، إلخ (كان يظهر على بغتة حوار بين شخصين، رجلين، أحدهما يبدو مدرسًا، والآخر يبدو طالبا. قرأته مرات كثيرة لأن حماقة الرجل الذى لم يكن بمقدوره أن يعتقد فيما يشرحه المدرس كانت تسلينى، فالمدرس دائمًا يتحدث كلامًا منثورًا منذ ولد. لم أكن أعرف شيئًا عن موليير (ومن أين أعرفه)، لكننى دخلت عالمه، من أكبر بواباته، من قبل حتى أن أتخطى مرحلة تعلم الحروف المتحركة. لقد كنت طفلا سعيد الحظ.

لا أستطيع أن أتذكر اسم مدير مدرسة لارجو دو لياو، تلك المدرسة التى ألحقونى بها بعد أن أنهيت الصف الأول فى شارع مارتينس فيراو، لكننى أتذكر أن لقبه كان فارينيو (وهو لقب نادر لا نجده الآن فى دليل تليفونات لشبونة). كان المدير رجلا طويل القامة نحيف البدن، بملامح وجه صارمة، وكان يدارى صلعه بسحب الشعر من جانب لآخر مثبتًا إياه بمثبت، كما كان أبى يفعل بالتمام، بالرغم من أننى يجب أن أعترف أن تسريحة شعر المدرس كانت تبدو لى مقبولة أكثر من تسريحة شعر والدى. فى هذه السن الرقيقة كانت نفسى تشتاق لمنظر أبى الهزلى (معذرة لقلة احترامى) خاصة عندما كنت أراه ينهض

من سريره ، بشعره الأشعث المتساقط على جانبه الطبيعى وجلد جمجمته الأبيض ذات الشحوب الطفيف، حيث إنه، بما أنه رجل شرطة، كان يلتزم بارتداء قبعة الزى الرسمى عند سيره معظم الوقت. عندما ذهبت لمدرسة لارجو دو لياو، أمرت مدرسة الصف الثانى، التى كانت تجهل إلى أين يصل مستوى التلميذ، حديث المجىء، فى المواد التى تدرس، وبدون أى سبب لتنتظر من شخصى أية بارقة حكمة (يجب أن أعترف أننى لم أكن مضطرًا أن أعتقد شيئًا آخر) أن أجلس بين التلاميذ المتأخرين، الذين كانوا، بسبب وضع القاعة، جالسين على الطرف، على يمين المدرسة وفى مواجهة الصفوف المتقدمة، التى يجلس فيها من يجب أن يكونوا القدوة. بعد ذلك، بعد أيام قليلة من بدء الحصص، ولتختبر المدرسة مستوانا فى علوم الكتابة، قامت بامتحان إملاء. حينها كان خطى مستديرًا ومتوازنًا، راسخًا، خط جيد بالنسبة لعمرى. حسنًا، ما حدث هو أن زيزيتو (لا ذنب لى فى اسم تدليلى هذا، فهكذا كانت أسرتى تنادينى ، وأشكر الحظ لأنهم لم يسمونى مانويل فحينها سيكون تدليلى نيلينيو...) أخطأ خطأ كتابيًا واحدًا فى الإملاء، لكن حتى هذا الخطأ لم يكن خطأ كامل، إذا اعتبرنا أن أحرف الكلمة كتبت بأكملها، بالرغم من أننى بدلت موقع حرفين : فبدلا من " كلاسى " كتبت " كالسى " . ربما من فرط التركيز. وهنا بدأت، كما أعتقد الآن، قصة حياتى. (فى قاعات هذه المدرسة، وربما فى كل

قاعات البلد ، كانت المقاعد المزدوجة التى نجلس عليها شبيهة تماما بتلك المقاعد التى، بعد خمسين عامًا، فى ١٩٨٠، وجدتها فى مدرسة بقرية سيداديلهى، فى إقليم بينيل، عندما تعرفت على أناس وأراض لأدخلهم فى كتابى " رحلة إلى البرتغال ". أعترف أننى لم أستطع أن أدارى شعورى عندما فكرت أننى ربما جلست على أحد من تلك المقاعد فى سنوات دراستى الأولى. كانت أكثر قدمًا، مليئة بالبقع و الخطوط جراء الاستعمال وقلة الاعتناء، كما لو كانت قد انتقلت من مدرسة لارجو دو لياو ومن سنة ١٩٢٩). فلنمسك بخيط الحكاية. كان أشطر التلاميذ يشغل المقعد الواقع بالقرب من باب الفصل، وهناك كان يقوم بدور بواب الفصل، هذا الدور العظيم، حيث إنه يختص بفتح الباب عندما يطرقه أحد من الخارج. حسنًا، أمرتنى المدّرسة، المندهشة من موهبة الكتابة لدى الطفل حديث المجىء من مدرسة أخرى ، بمعنى آخر الذى كان مشتبهًا فيه كتلميذ بليد، أن أجلس فى مكان التلميذ الأول بالفصل، حيث، بالطبع ، لم أجد أمامى سوى خلع الملك السابق من فوق عرشه. أرى نفسى، كما لو كان الحدث يجرى أمام عينى فى هذه اللحظة، أجمع أشيائى بسرعة، أعبر الفصل طوليا أمام نظرة زملائى الحائرة، أهى نظرة إعجاب؟ أم حسد؟، وبقلب ينبض بخفقان ، أجلس فى مكانى الجديد. عندما منحنى نادى القلم جائزته عن روايتى " عندما تنهض من الأرض "، رويت هذه الواقعة لأؤكد

للحاضرين أنه لا توجد لحظة مجد حاضرة أو مستقبلية من الممكن أن تقارن بتلك اللحظة، ولا حتى أن تكون ظلا لها. واليوم ، مع ذلك، لا أستطيع أن أكف عن التفكير فى الصبى المسكين الذى طردته المدرسة ببرود من مكانه ، تلك المدرسة التى لا تعرف عن تربية الطفل أكثر مما أعرفه أنا عن الذرة، إن كانوا حينها يتحدثون عنها. كيف يمكن أن يخبر الصبى أبويه ، هذان الفخوران بنبتهما ، أنه قد تم نزوله من فوق قاعدة التمثال بسبب صبى غريب ومجهول ظهر فى التو من جانب الأفق الآخر ، مثل توم ميكس وحصانه رايو؟ .لا أتذكر إن كنت قد عقدت صداقة مع هذا الزميل التعيس أم لا ، لكن أغلب الظن أنه لم يرد حتى أن يرانى . وبالإضافة لذلك ، إن لم تخوننى ذاكرتى، أعتقد أننى بعد قليل تم نقلى لفصل آخر، من يدرى، ربما كان السبب هو أن أحل المشكلة التى سببتها المدرسة بسماجة إحساسها. ليس من الصعب تخيل أبًا غاضبًا يدخل مكتب المدير فارينيو ليقدم له اعتراضه بشدة على التفرقة. (هل كانوا يستخدمون هذه الكلمة حينها)؟ التى كان ضحيتها ابنه. بالرغم من أننى، ولأقل الحق، أشعر أن الأباء فى هذه الأزمنة البدائية لم يكن يهمهم كثيرًا هذا النوع من التفاصيل. فكل ما كان يهمهم فى الأمر يمكن اختصاره فى معرفة هل انتقلنا من صف لصف أم لا ، هل نجحنا أم رسبنا. باقى الأمور لم تكن ذا شأن .

عندمـا انتـقلت من الصـف الثـانـى للثـالـث، أرسل المدرس فـارينيـو فى طلب أبى. أخـبـره أننى تلمـيـذ مـجـتـهد وشـاطر، وأننـى بوسـعى أن أخـتـصـر الصف الثالث و الرابع فى عام واحد فقط. أما الصف الثالث فقد كان يكفى حضور الحصص العادية ، لكن الصف الرابع بمواده المعـقـدة فـقـد كنت فى حـاجـة لدروس خصـوصـية قام فارينيو نفسه بإعطائها لى فى بيته، وبالمناسـبة كـان بيـته داخل المدرسـة نفسـهـا، بـالطابق الأخـيـر. وافق أبى ، خـاصـة لأن الأمـر لا يـكلفه شيـئًا، فـالمدرس فـارينيو يعـمل من أجل الصـالـح. ولم أكن أنا وحـدى المستـفـيد بهذه المعاملة الخـاصـة، وإنما هناك ثلاثة آخرون من زملائى فى نفس وضعى، اثنان منهما من أسـر مبسـوطة تقريبًا. أما الثالث فقد عـرفت أن أمـه أرملة. كـان أحـدهم يسـمى خـورخى، والآخـر ماوريثى، اما الثالث اليتيم فقد نسيت اسمه، لكننى أتذكـر صـورته، كـان نحـيـفًا ومقـوس الظهـر بعض الشىء. كان خورخى، بلا التباس، بدأ يظهر له الزغب فى منبت شـاربه. أمـا مـاوريثـيـو فـقـد كـان شـيطانًا حقيقًا يرتدى بنطلونًا، وكان مثيرًا للمشاكل، عنيفًا، يجـرى دائمًا وراء المشـاجـرات : ذات مـرة، فى لحظة غضب، ارتمى فوق زميل وغرز القلم فى صدره. بهذا الخلق، ماذا فعل هذا الصبى فى حياته؟ كنا أصدقاء، لكن لم تكن صداقـة حـمـيمـية. فلم يزورونى أبدًا فى بيـتى (حيث كنا نعيش كـالعادة فى غـرف مؤجـرة من البـاطن ولم تعـبـر برأسى أبدًا فكرة أن أدعـوهم لـبـيتنا

وهم أيضًا لم يدعونى). عشرة، علاقات، ألعاب، فقط كانت هذه هى علاقتنا أثناء الفسحة. وبالمناسبة (هل تعد هذه إحدى أخطائى المعجمية)؟ أتذكر أننى فى تلك الأيام كان يلتبس علىَّ نطق كلمة "ريتاردادور(*) و" ريدنتور " وبأكثر الأشكال التى يمكن تخيلها غرابة. كان قد ظهر، أو ربما ظهر قبل ذلك و اكتشفته أنا متأخرًا، مؤثر إمرار الصور السينماتوغرافية على الكاميرا البطيئة وهو الأمر الذى كانوا يطلقون عليه بالتحديد " التصوير البطىء". حسنًا، حدث أنه، فى وسط لعبة ، قررت أن ألقى نفسى على الأرض، لكننى قمت بذلك بحركة بطيئة، فى نفس الوقت الذى كنت أقول فيه "إنه الردنتور(*) . لم يهتم الاخرون بالكلمة، فربما، ما كنت لا أعلمه، أنهم حتى لا يعرفون تلك الكلمة.

أتذكر بعض المشاجرات الكبيرة خارج المدرسة مع أولاد من بيوت قريبة، كانت معارك بالطوب ولحسن الحظ لم تنته بدم و لا بدموع ، لكننا بذلنا فيها عرقا جمًا. كان الدرع الذى يحمينا هو غطاء الحلل الذى كنا نبحث عنه عند الزبالين. وبالرغم من أننى لم أكن أبدًا من ذوى الشجاعة البالغة، أتذكر أننى ذات مرة تم الهجوم علىَّ بوابل من الحجارة، وفقط بهذه الإيماءة البطولية استطعت أن أفرق جمع عدوين أو ثلاثة كانوا فى مواجهتنا. ومازلت إلى الآن أشعر، عند تقدمى

(*) يقصد الريتاردادور : اى التصوير البطىء (المترجم) .

هكذا، بوجه مكشوف، إننى كنت أخلف قاعدة قتال ضمنية، كتلك القاعدة التى يحتفظ بها كل جيش فى مواقعه العسكرية وبناء على تلك المواقع، بدون تعبئة ولا تفريغ، يصوب النار ناحية العدو. بعد أكثر من سبعين عامًا، ومن بين ضباب الذاكرة، أستطيع أن أرى نفسى بغطاء الحلة فى يدى اليسرى وبحجر فى يدى اليمنى (وبحجرين فى جيبَّى بنطلونى) ، بينما مجموعة البنادق من الجانبين تمر فوق رأسى. أكثر ما أتذكره من الدروس الخصوصية للمدرس فارينيو هى اللحظة التى فيها، بعد انتهاء الدرس ، يكتب بخطه الجميل الاختصارات الأربعة: m , s , b , op., فى كراساتنا المجلدة بجلاد أسود، وهى اختصارات لدرجات اليوم :ضعيف، مقبول، جيد، ممتاز. ومازلت أحتفظ بكراستى والتى فيها يُرى كيف كنت تلميذاً شاطرًا فى تلك الفترة :فكلمة " ضعيف " كتبت قليلا جدًا، و" جيد " كتبت كثيرًا، أما " ممتاز " فلم تغِبْ . كان أبى يوقع أسفل الصفحة كل يوم، باسم سوسا فقط، فلم يسترح أبدًا، كما سبق و قلت، لاسم ساراماجو الذى أجبره ابنه على اتخاذه. ولتفخر عائلتى، سواء المقيم منها فى المدينة أو فى القرية، نجحت بتميز فى امتحان الصفّ الرابع. قمت بالامتحان الشفهى فى فصل بالطابق الأرضى (الطابق الأرضى باعتباره مرتبطًا بالجزء الخلفى من المبنى، الذى يطل على فناء الفسحة، لكنه الدور الأول بالنسبة للقادم من الشارع)، كان يومًا صافيًا، شمسه

ساطعة، وكان النسيم يدخل من النوافذ المفتوحة على الجانبين اشجار فناء الفسحة كانت خضراء ووارفة (لم أعد بعد ذلك أبدًا لألعب تحت ظلالها)، وأنا كنت أرتدى بدلتى الجديدة، إن لم تكن ذاكرتى مزيفة، تلك البدلة الواسعة من تحت ذراعى. أتذكر أننى انتابتنى أمام أحد أسئلة اللجنة (ربما لم أعرف الإجابة، أو ربما التلعثم بلع لسانى كما يحدث لى أحيانًا)، فقام أحد، رجل شاب لم أره أبدًا فى المدرسة، كان مسنودًا على نجران الباب الأقرب الذى يطل على فناء الفسحة، على بعد ثلاث خطوات منى، بتلقينى الإجابة برقة. ماذا كان يفعل هذا الرجل هناك، ولِمَ لَمْ يكن داخل الفصل كالجميع؟ سر غامض. حدث ذلك فى سنة ١٩٣٣، شهَر يونيه، وفى أكتوبر التحقت بليسيه جيل فيسنتى، وأقمت تلك الفترة فى دير سان فيسنتى دى فورا القديم. وخلال فترة ما فكرت أن الشىء لزوم الشيء: اسم الليسيه واسم القديس... ولم أتمكن أن أنتظر حتى أعرف من هو هذا جيل فيسنتى.

أظن (واليقين لا يمكن أن يكون تامًا) أن بفضل «دروس» كتاب المحادثة البرتغالية - الفرنسية والذاكرة القوية التى تمتعت بها حينذاك، استطعت أن ألمع فى الليسيه فى المرة الأولى التى طلبونى فيها للسبورة، لأكتب كلمة Papier وبعض الكلمات الأخرى وبطلاقة أفرجت أسارير المدرس، الذى ربما اعتقد أننى ضليع فى لغة موليير. وعندما أمرنى أن أجلس، كانت سعاتى بأداء دورى على أكمل وجه سعادة بالغة، حتى أننى

عند هبوطى من المنصة، لم أستطع أن أكبح الشعور بالفخر أمام زملائى. كان توترا صافيا، لكن المدرس ربما خشى أن يكون هذا الانفعال مقدمة لسلوكيات مستقبلية خاطئة فحذرنى فى تلك اللحظة أنه سيقلل درجاتى التى أعتقد أنه سيعطيها لى كاملة. كان أمرًا مؤسفًا، فالأمر لم يكن يستدعى كل هذا. بعد ذلك، مع مرور الوقت، سنحت له الفرصة ليدرك أنه ليس لديه فى الفصل تلميذ متمرس فى إثارة الفتن فعدل حكمه السابق. أما مدرس الرياضيات، فلم يكن أحد منا بالطبع، نحن الجنود المستجدين فى السنة الأولى، يسمع أحدًا يتحدث عنه، لهذا، بقينا فى حيرة عندما أخبرنا، دون أن يقدم لنا نفسه، إن الكتاب الذى سنسترشد به فى دراستنا هو كتابه، بمعنى أنه من تأليفه. وبالطبع لم يتجرأ أحد ليسأله: «وما اسم حضرتك؟». وحسنا فعل الفراش عندما أنقذنا. كان اسم المدرس جيرمانو. أما لقبه فلا أتذكره.

فى العام الأول كنت تلميذًا شاطرًا فى كل الأنشطة، باستثناء الغناء الكورالى، الذى كنت أنجح فى امتحانه بمقبول بالضبط. وقد ذاع صيتى حتى أنه ذات مرة جاء لفصلنا تلاميذ أكبر منا فى الدراسة ليسألوا عن المدعو ساراماجو، وأعتقد أن ذلك يرجع لما كان المدرسون يقولونه حولى. (كان هذا هو الزمن السعيد الذى كان فيه أبى يذهب بورقة فى جيبه ليراها أصدقاؤه، وهى ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة بها درجاتى، وكان عنوانها «درجات بطلى». بأحرف

كبيرة). وقد وصل صيتى لدرجة الهراء، حيث إنهم، فى بداية؛ العام الثانى، عندما تمت انتخابات الجمعية الأكاديمية، انتخبونى، تصوروا، لمنصب أمين الصندوق. وكان عمرى ١٢ عاما... أتذكر أنهم وضعوا فى يدى كمية من الأوراق (حصص وتسوية حسابات) تلك الأوراق التى عرفت بجهد جهيد ما فائدتها وفى الحقيقة لم أصل لاستخدامها أبدًا. كان العام الثانى عامًا سيئًا. لا أعرف ماذا حدث فى عقلى، ربما بدأت أرتاب فى أن قدمىَّ لم تخلق للسير فى هذا الطريق، وربما نفد معينى ونفدت طاقتى اللذين جئت بهما من المدرسة الإبتدائية. هذا بدون أن أنسى أن أبى يحسب حسابات المعيشة ومصروفات البكالوريا كاملة، وبعد ذلك، أى مستقبل يبقى؟. كانت درجاتى منخفضة بشكل عام، ففى الرياضيات، على سبيل المثال، لم أصل لدرجة مقبول، لا فى الترم الأول ولا الثانى. وإن كنت فى النهاية قد نجحت بدرجات أكثر من الدرجات الضرورية للنجاح، ولن يصدق أحد أن القفزة العالية فى المستوى والتى سمحت لى بالذهاب للامتحان كانت بسبب نتيجة التطبيق النهائى واليائس فى أيام الدراسة. وللأمر شرح آخر. ففى اليوم الذى أعلنت فيه الدرجات التى من المقترح حصولنا عليها، خطر ببال المدرس جيرمانو خاطر سعيد وهو أن يسأل تلاميذ الفصل إن كان يبدو لهم أننى أعرف عن المادة أكثر من الدرجات التى حصلت عليها، فأجاب

الصبية، مجتمعين ومتضامنين معى، بالإيجاب، قائلين إننى أعرف أكثر... والحق إننى لم أكن أعرف أكثر.

كان الولوج لجيل بيسنتى يتم من خلال منحدر موازٍ لشارع ضيق يأتى من ميدان سان بيسنتى إلى الكامبو دى سانتا كلارا. وبمجرد عبور الباب الداخلى كان يوجد سور، وهو المكان الذى كنا نجتمع فيه للفسحة. أتذكره كمكان رحب (لا أعرف كيف حاله الآن، إن كان مازال موجودًا)، اعتقد أنه ربما يسع من الصف الأول للسابع كل التلاميذ بل وسيفيض فراغ. ذات مرة، كما رويت قبل ذلك، عانيت هناك سقطة مروعة فتحت ركبتى اليسرى وتركت آثارها خلال سنوات طوال حملونى إلى العيادة الخارجية ووضع لى الممرض قمطة (عادة ما وجد ممرض مناوب). كانت القمطة، كما كتبت قبل ذلك وأكرر هنا ببعض التفاصيل الإضافية، عبارة عن قطعة من المعدن، مستطيلة وضيقة، عند رؤيتها تبدو مشبكًا بسيطًا، مثنية فى زاوية مستقيمة فى الطرف، تغرز فى أطراف الجرح ، وبعد ذلك، برقة، يتم الضغط عليها حتى تلم بأفضل صورة وبهذه الطريقة تسرع عملية التئام الأنسجة المتهتكة. أتذكر بوضوح الانطباع الذى سببه لى رؤية (وإحساس، بالرغم من أنى يجب أن أعترف بأنه لم يكن كثيرًا) المعدن وهو يدخل فى لحمى . مشيت بعد ذلك بركبتى ملفوفة بالشاش وبساقى مشدودة حتى عدت للعيادة الخارجية ليفكوا

لى القمطة. ذكرى أخرى أحتفظ بها طازجة: الملقاط وهو يستخرج برقة قطعة المعدن، الشقان الصغيران فى اللحم الحى اللذان لم يدميا. وكنت مستعدًا لجرح آخر.

أتذكر بقوة شديدة، بوضوح مطلق، شبه فوتوغرافى، ممرات الليسيه الطويلة و الرحبة، الأرضية داكنة اللون، المكونة من بلاط قان يبدو ملمعًا بالشمع، ربما لم يكن كذلك، لكن تقويته وإستمراريته على حالته لابد أنهما ناتجان عن تلميعه بالشمع للاحتفاظ به نظيفًا مع كل هذه الأحذية التى تطأه طوال اليوم، فإذا لم يكن يلمع بالشمع، وهو افتراض منطقى، فأنا لا أفهم كيف كان يلمع بهذا البريق. لم يكن يُرى فى الحوائط شخبطات، ولا فى الأرض ورق، ولا أعقاب سجائر، ولا شىء من تلك السلوكيات الصبيانية غير المبالية وسيئة الاستخدام التى أصبحت عامة اليوم، كما لو كان الزمن، منذ ذلك الحين، اعتبرها عناصر ضرورية للتشكيل التعليمى من أعلى درجة. ربما كان ذلك ناتجًا عن دروس مادة تعاليم الاخلاق والقومية، بالرغم من أننى ليس بوسعى، إن قلت الحق، أن أتذكر واحدًا فقط من المبادئ التى علموها لنا. من كان المدرس؟ لا أتذكر، لكننى أعرف أنه لم يكن قسيسًا، أعرف أنهم لم يكونوا يدرسون مادة الدين فى ليسيه جيل بيسنتى. ولسوء الحظ، تلك الدروس، التى مازالت علمانية

وجمهورية، لم تمنعنى فى السنتين اللتين قضيتهما هناك، خاصة فى السنة الثانية، أن أصبح الكذاب الأعظم الذى لم أتعرف عليه أبدًا. كنت أكذب بلا سبب، فى كل الأحوال، أكذب من أجل كل شىء ومن أجل لاشىء. إجباريًا، كما يقولون الآن. عن أبى، الذى لم يكن رجل سياسة بالرغم من أنه ممثل للسلطة ، لم يكن أمامه حل آخر، ولم ينفر أبدًا من طاعة أوامر سادته وتنفيذها، اختلقت، عندما كنت أتنزه مع زميل لى (كان صبيًا نحيفًا، ذا ضب، وكان غداؤه لا يتغير أبدًا: قطعة خبز بداخلها فطيرة فرنسية) فى الطابق العلوى للرواق الذى يطل على الدهليز حيث توجد القاعات، اختلقت، كنت أقول ، إننى قد اشتريت كتاب سالازار لمؤلفه أنطونيو فيرو من معرض الكتاب. لا أتذكر اسم هذا الزميل. وما أتذكره منه هو صمته ونظرته : من المحتمل أن أهل بيته كانوا ضد نظام الحكم ... أما الأكذوبات الأقل ذنبًا فكانت تأليف أكذوبات عن أفلام لم أشاهدها أبدًا. بين شارع لا بينيا دى فرنسا، حيث نقيم، والليسيه، فى الطريق الذى أصبح اليوم شارع جنرال روساداس وبعده شارع لا جراسا، كانت توجد سينماتان : سينما الصالون الشرقى و السينما الملكية، وفيهما كُنا نتسلى، أنا والزملاء الذين كانوا يقيمون فى هذه الناحية، بمشاهدة عرض الإعلانات الفوتوغرافية، التى كانت عادة تعرض فى كل السينمات. وبناء على هذه الصور القليلة، التى فى مجملها تصل لثمانى أو عشر صور،

أشـيـد هنـاك قـصـة كـاملة، ببـداية وعـقـدة ونهـاية، مـستـعـينًا فى المناورة الافـتـعاليـة بلا شك بمعـرفـتى المبكرة للفن السابع والتى اكتسبتها فى العصر الذهبى لسـينـمـا " القـملة " بموريـريا. وبقليل من الحـسـد، كـان زمـلائى يستـمـعون لى باهتـمام كبيـر، ويسـألوننى من حين لآخر لأوضح لـهم مشـهدًا غامـضًا، أمـا أنا فكنت أكـوم الـكذبـة فـوق الأخـرى، ولم يـكن مـن الصـعـب تصديقـهم لى بالفعل إننى حقًا شاهدت مـا كنت أؤلفه ببساطة ...

عندما كنت أحضر إلى ليسيه جيل بيسنتى كنا نقيم فى شارع هيـرويس دى كيونجا. أنا على يقـين من ذلك لأننـى أتذكـر، قـبـل أيام قليلة مـن بدء الدراسـة، أننـى كنت جـالسًا علـى الأرض بالغـرفـة التى لم تكن غـرفـة أبوَّى، وأقـرأ كتـاب الفـرنسـيـة (فـى هذه الفـتـرة كنا قـد خطونا درجة فى السلم الاجتماعى ، وشـغلنا جزءًا من شقـة). فى شـارع هـيـرويس دى كيـرونجـا هـذا كنا نقيم نحن وعـائلة باراتا، التى رافقتنا فى بيت شـارع فيـرناو لوبيس، بالإضـافـة لعـمـة لهم لا أعـرف من أين تنحـدر، كـانت طاعنة فى السـن وتسـمـى إيمـيـديا، مـثل زوجـة باراتا الأكبـر. وكل فـتـرة ما، أعـتقـد مـرة أو مـرتين فـى الشـهـر، كـان يأتى قـريب فـى زيـارة لهم، ابن أخـتـهم أو ابن عمومتهم، وكان يدعـى خوليو، وهـو رجل أعمـى كان يقـيم بأحـد الملاجئ. كـان يـرتدى زيًا مـوحـدًا ذا لون رمادى فـاتح . كان أجـرد الوجه، بشـعـر قليل فـى رأسه، وهـذا الشـعـر كـان مـسـجـجًا. امـا عـيناه فكانتـا شـبـه

بيضاوين وكانت طلعته كطلعة من يمارس العادة السرية يوميًا (هذا ما أعتقده الآن، لا في تلك الفترة) لكن أكثر ما كان يضايقني فيه هي رائحته النافذة، رائحة عتيقة، رائحة طعام بارد وحزين، رائحة ملابس سيئة الغسيل، تلك الأحاسيس التي بقت في ذاكرتي محفورة و ارتبطت دائمًا بالعمى وربما استطعت أن أعكسها في روايتي " العمى ". كان يعانقني بقوة بالغة وأنا لم أكن أحب هذا العناق. وبالرغم من كل هذا، دائمًا كنت أذهب لأجلس بجانبه عندما كنت أراه يستعد للكتابة، كان يضع صفحة من الورق السميك، ملائمة له، بين صينيتين من المعدن وبعد ذلك، بكل سرعة، وبلا تردد، يبدأ في نقرها بنوع من المثقب. كما لو كان يتمتع بأثقب نظر في الدنيا. أريد الآن أن أتخيل أن خوليو ربما فكر أن تلك الكتابة هي نوع من إشعال النجوم في ظلمة عماه العضال .

في هذا الزمن لم تكن توجد هدايا عيد الظهور (أو أنا من لا أتذكرها) كذلك لم تكن توجد عادة وضع صورة المسيح في المذود وحوله أهله مع البقرة و الثور وبقية الرفقة . كنا نترك الحذاء ليلا في المصطلى، بجانب مواقد الجاز ، وفي الصباح التالي كنا نذهب لنرى ما تركه لنا الطفل يسوع. نعم، في هذا الزمن كان الطفل يسوع هو من يهبط من المصطلى، ولم يكن يضطجع فوق القش، ببطن عارية، في انتظار أن يحضر له الرعاة اللبن و الجبن ، لأنه نعم ، سيحتاج تلك الأشياء ليعيش، لا ذهب السحرة و لا بخورهم ولا

مُرُّهُم، هؤلاء السحرة الذين، كما نعرف، أحضروا له فقط المرارة من أجل تذوقها. كان الطفل يسوع فى تلك الفترة مازال الطفل يسوع الذى يعمل ويجتهد ليكون نافعًا لمجتمعه، وكان فى النهاية من طبقة البروليتاريا مثل كثيرين آخرين. على أية حال ، كنا نحن صغار البيت تراودنا الشكوك : كان من الصعب علينا بمكان أن نعتقد أن الطفل يسوع على أهبة الاستعداد لأن يدنس بهذه الطريقة بياض ملابسه بهبوطه و صعوده طوال الليل فوق الحوائط المغطاة بهذا الهباب الأسود اللزج الذى يغطى المصطلى من الداخل. ربما لأننا تركنا هذا الارتياب الصحى يطل علينا بنصف كلمة ، أراد البالغون فى إحدى ليالى عيد الميلاد أن يقنعونا أن الأشياء الخارقة للطبيعة، بالإضافة لكونها حقيقة موجودة ، هى أيضا أشياء نمتلكها داخل بيتنا. اثنان منهما ،أعتقد أنهما كانا اثنين، ربما أبى و أنطونيو باراتا، ذهبا إلى الممر وشرعا يديران عربات لعبة من جانب لآخر، بينما الذين تبقوا معنا فى المطبخ كانوا يقولون : " أتسمعون؟ أأنتم سامعون؟ إنهم الملائكة". أنا كنت أعرف هذا الممر كما لو كنت قد ولدت فيه ولم ألحظ أبدًا أية إشارة للوجود الملائكى عندما، على سبيل المثال، مرتكزًا على جانب والجانب الآخر بيدى وقدمى، كنت أتسلق الحائط لأعلى لألمس برأسى السقف . ولم أجد بالجزء العلوى أى نموذج يذكر

للائكة و لا لطائفة السيروفيم الملائكية . مع مرور الوقت، عندما وصلت لسن المراهقة، حاولت أن أعيد مهارتى لكننى لم أستطع . فقد كبرت ساقاى وأصبحت مفاصل كعبّى وركبتّى أقل مرونة، آخر الأمر، إنه ثقل السن ...

ذكرى أخرى (قد ذكرتها فى" كتاب عن الرسم والخط") عن حالة السيدة إيميديا المضطربة، وهى امرأة عجوز، كما سبق و قلت، بشعر أبيض ملموم ومحكوم فى قفاها فى شكل كحكة، قوى، شديدة التحف، حمراء الوجه بطبيعتها ولكثرة الشرب، تلك المرأة أعطتنى انطباعًا عن العفة خارج عما هو مألوف فى وقتها، كانت تبيع أبا فروة مشويًا على باب إحدى الحانات الواقعة تحت مستوى الأرض قليلا، عند ناصية شارع موررايس سواريس مع شارع هيرويس دى كيرونجا، لكن كان لديها أيضًا بعض الحلويات الصغيرة المعتادة التى كانت تضعها على ترابيزة تثنى أرجلها، تلك الحلويات كانت كراميل، أعمدة من الفول السودانى بالعسل والفول السودانى سائب بلا عسل، حب الصنوبر المعقود الذى كنا نسميه عقودًا. من حين لآخر عندما كانت تتجاوز الحدود المعقولة فى شرب النبيذ كانت تثمل. ذات يوم، وجدنها نساء البيت ملقية على أرضية غرفتها، فاتحة ساقيها ورافعة جيبتها، مدندنة لا أعرف ماذا تغنى،

بينما كانت تمارس العادة السرية. حضرت أنا أيضًا هذا الموقف بدافع الفضول، لكن النساء كن يشكلن حاجزاً فاستطعت بالكاد أن أشعر بالغريزة الأساسية... كان عمرى وقتها تسع سنوات تقريبًا، لا أكثر. وكان هذا الموقف أولى فصول تربيتى الجنسية الأساسية .

موقف ثالث لا يعد أقل أهمية، كان المهارة التى يستخدمونها فى البيت لخداع شركة المياه . كانوا يصنعون ثقبًا بإبرة رقيقة فى جزء من الماسورة الرصاصية التى كانت توجد أمام أعيننا وكانوا يربطونها بخرقة، تاركين الطرف الآخر معلقًا داخل إناء. بهذه الطريقة، بتؤدة، نقطة وراء نقط، كان الإناء يمتلئ، ولأن الماء لا يمر بالعِداد، لا يتم تسجيل استهلاكه. وعندما يصفق السائل، أى عندما يمتلئ الإناء، كنا نمرر رقيقة من السكين فوق الفتحة الصغيرة، فيخفى الرصاص الذى صار مرمما جريمتنا، لا أدرى كم من الوقت ظللنا نفعل هذا، حتى رفضت الماسورة، من كثرة ثقوبها، أن تتواطأ مع جريمتنا، وبدأت تسكب الماء من جميع ثقوبها، القديم منها والحديث. كان من الضرورى أن نرسل فى طلب «رجل الشركة». جاء، نظر، قص الجزء المتهالك من الماسورة ، وبدون أن يرغب أن يقدم دليلا على معرفته بالحيلة التى لابد أنها ليست جديدة عليه، قال، بينما كان ينظر داخل الماسورة : "حسنًا، إنها

تالفة ". لحم الماسورة الجديدة ومشى. كان رجلا طيبًا بلا شك، لم يرغب أن ينكد علينا بدفع غرامة للشركة. يجب أن أتذكر، أن أحدًا من رؤساء البيت الثلاثة لم يكن موجودًا فى هذه اللحظة، والحمد لله ،لأنه لم يكن من اليسير شرح كيف نتجرأ على ارتكاب هذه المخالفات القانونية وفى البيت اثنان من الشرطة، وأحدهما ، لزيادة الطين بلة ، يعمل فى البحث الجنائى. هناك احتمال آخر أيضا يجب أن نضعه فى الاعتبار بجد وهو أن موظف شركة المياه ، المطلع على الأمر مسبقا من قبل أبى أو أحد من الاثنين الآخرين، كان يعرف كل شىء . وهو احتمال وارد بشكل جيد.

عن الفترة التى قضيتها فى شارع هيرويس كيرونجا لدى القليل لأرويه، فقط بعض الذكريات المتناثرة، قليلة الأهمية: عن الصراصير التى كانت تعبر فوقى عندما كنت أنام على الأرض، عن كيف كنا نشرب الشوربة أنا وأمى من نفس الطبق كل منا من جانب، ملعقة هى وملعقة أنا؛ عن الصباح الذى أمطرت فيه السماء بغزارة فقررت ألا أذهب للمدرسة، أمام غضب عارم من أمى ومفاجأة كبرى منى لأننى تجرأت على الغياب عن المدرسة بدون أن أكون مريضًا وبدون أن يكون هناك مانع قوى؛ عن مشاهدتى لخيوط الماء التى كانت تنزلق من أعلى الزجاج لأسفله، بينما كنت أقف أنا خلف نافذة الشرفة بالجزء الخلفى من البيت؛ عن عشقى لرؤية الصور المشوهة للأشياء الواقعة على الجانب الآخر،

من خلال عيوب الزجاج؛ عن أرغفة الخبز الصغيرة التى كنا نشتريها من المخبز، والتى كانت مازالت ساخنة وطيبة الرائحة، هذه الأرغفة التى كنا نطلق عليها أرغفة " السبعة ونصف "؛ وعن خبز " فيانيلهاس" المخبوز من عجين رقيق، والأغلى سعرًا، هذا الخبز الذى أكلته فقط فى مرات معدودة وشعرت بالرضا اللذيذ لأكله ... دائما ما عشقت الخبز .

على عكس ما سبق ذكره ، لم تدخل عائلة باراتا حياتى عندما انتقلنا من شارع لوس كافاليروس لشارع فيرناو لوبيس. فبفضل بعض الأوراق التى اعتقدت ضياعها والتى ظهرت بعد ذلك أمام عينى بفضل العناية الإلهية، بدون أن أتوقع ذلك، عندما كنت أبحث عن أوراق أخرى، استطاعت ذاكرتى التائهة أن تجمع وتشبك عدة قطع كانت متناثرة، وفى نهاية الأمر، وضعت ما هو يقينى وحقيقى فى المكان الذى قد كان يسوده حتى الآن ما هو مشكوك وغير مفصول فيه . أورد هنا ، حتى تتيقن، البرنامج المضبوط و النهائى لانتقالنا المتكرر من بيت لآخر :مكان يعرف باسم كينتا دى لا بييرنا دى بالو، بمنطقة بيتشيليرا حيث بدأنا، بعد شارع E، فى شمال دو بينا (الذى صار اسمه بعد ذلك لويس مونتيرو)، بعد ذلك شارع سابينو دى سوسا، شارع كاريلهو فيديرا (هنا ظهرت عائلة باراتا للمرة الاولى)، شارع فيرناو لوبيس (معهم من جديد) شارع هيرويس دى كيرونجا (مازلنا بصحبتهم)، مرة أخرى العودة لبيّت شارع كاريلهو فيديرا (مازلنا مع عائلة باراتا)، شارع الأب سئينا فريتاس (فقط مع أنطونيو باراتا وكونسيبسيون)،

شارع كارلوس ريبيرو (انفصلنا عنهم أخيرًا) . عشرة بيوت فى أقل من عشر سنوات، ولم يكن ذلك بسبب عدم دفع الإيجار، على ما أعتقد ... كما قد رأينا، لم يلتبس علىَّ الأمر عندما كتبت أننا أقمنا فى شارع كاريلهو فيديرا مرتين، لكنه كان خطأ فادحًا، بدون أن أتوقف لأتأمل فى بعض المسائل الأساسية للفسيولوجية الجنسية والتطور الهرمونى، عندما قلت إن عمرى كان حوالى أحد عشر عامًا عندما حدثت واقعة دوميتيليا . لا شىء من هذا . فالحق أن عمرى كان حوالى ست سنوات وعمرها كان ثمانى سنوات تقريبًا . بعد التنقيح، لو كان عمرى أحد عشر عامًا، كما قلت فى البداية، سيكون عمرها هى ثلاثة عشر، وفى هذه الحالة سيكون الأمر أكثر جدية و لن يتوقف عقاب الجريمة حينها عند الضرب على مؤخرة كل منا ... الآن قُطع الشك باليقين، و استراح ضميرى من ثقل الخطأ، فلأواصل .

كما كانت العادة فى تلك الأيام ، كان نقل أثاث البيت بالنسبة للذين لا يستطيعون دفع أجرة سيارة يتم على ظهور شيالين ، بلا عدة تذكر سوى عصا وأحبال و جوالات . وقوة احتمال، وكثيرا من قوة الاحتمال. لكن الأشياء الصغيرة لم يكن الشيالون ينقلونها، لذا تحتم على أمى ، على مدار تلك السنوات (أنا لا أتخيل ذلك ، بل شاهدته بعينى) أن تسير عدة كيلومترات من بيت لبيت، حاملة على رأسها سلال وربطات، أو تسندها على مؤخرتها عندما يكون ذلك

ملائمًا. ربما فى لحظة من تلك اللحظات خطر ببالها هذا اليوم الذى فيه، عندما كانت فى القرية وكانت مضطربة و مشوشة لأن أبى طلب منها الجنس عند الفسقية نست أنها لتدخل البيت بالإبريق فوق رأسها كان من الضرورى أن تنحنى. لم تتذكر، فاصطدم الإبريق بأسكفة الباب، وفى لحظة كان كل شىء على الأرض. حطام، مياه مسكوبة ، فواجع جدتى، وربما ضحكات عند معرفة سبب الحادثة. من الممكن أن أقول إن حياتى بدأت هناك، مع دورق مكسور.

وصلت أمى وأخوتى إلى لشبونة فى صيف ١٩٢٤. فى تلك السنة، فى شهر ديسمبر، مات فرانسيسكو. كان عمره أربع سنوات عندما قضى عليه التهاب رئوى شعبى . وتم دفنه قبل عيد الميلاد بيوم. عند الحديث بدقة بالغة، أعتقد أن ما تسمى بالذكريات المزيفة أمر لا وجود له، وأن الفرق بين هذه الذكريات و الذكريات التى نعتبرها صائبة و آمنة يقتصر على مسألة بسيطة مرتبطة بالثقة، الثقة التى لدينا فى كل موقف فى هذا الغموض الذى لا يمكن تصحيحه والذى نطلق عليه اسم اليقين. هل هى ذكرى مزيفة تلك الذكرى الوحيدة التى أحتفظ بها لفرانسيسكو؟ ربما تكون كذلك، لكن الحقيقة أننى منذ ثلاثة وثمانين عامًا أحتفظ بها على أنها حقيقية ... نحن فى بدروم بشارع E بمنطقة الألتو دو بينا، يوجد كومودينو تحت فتحة أفقية فى الحائط، طويلة وضيقة، تعد منورًا أكثر منها نافذة، منحدر مع رصيف الشارع (أرى

سيقانًا بشرية تمر عبر ما أظنه ستارة)، ولهذا الكومودينو درجان سفليان مفتوحان، آخرهما أكثر خروجًا بحيث يصنع نوعًا من السلم مع الدرج الأول. الجو صيف، ربما نفس العام الذى سيموت فى خريفه فرانسيسكو. فى هذه اللحظة (الصورة موجودة هنا لمن يرغب أن يراها) كان طفلا سعيدًا، ثابتًا، كاملا، ليس لديه صبر، كما نرى، لينتظر حتى ينمو جسده ويطول ذراعاه ليصل إلى ما يجده فوق الكومودينو. هذا هو كل ما أتذكره عنه. فلو ظهرت أمى لتقلع من جذورها نزوات فرانسيسكو الجبلية، فهذا أمر لا أدرى عنه شيئًا. ولا حتى أعرف إن كانت فى البيت وقتها، أم ذهبت لتمسح درجات سلم لمبنى قريب. فلو تحتم عليها أن تمسح السلالم بعد ذلك، بسبب الحاجة، عندما أصبحت كبيرًا بما فيه الكفاية لأدرك ما كان يحدث، فأغلب الظن أنها قامت بنفس العمل حينذاك، عندما كانت الحاجة أشد. ولن يستطيع أخو فرانسيسكو أن يفعل شيئًا ليقى متسلق الجبال الجرىء هذا السقوط، فى حالة حدوثه. لابد أننى كنت جالسًا على الأرض ، بحلمة الرضاعة فى فمى، وكان عمرى أكبر من عام و نصف بقليل، مشغولا، بدون أن أستطيع و لا أتخيل إن ما كُنت أفعله، من تسجيل ما أراه فى أى مكان من عقلى الصغير، كان بهدف أن أتمكن أن آتى لأرويه بعد ذلك، فى حياتى القادمة، لجمهور محترم . هذه هى إذًا أقدم ذكرياتى. وربما تكون مزيفة ...

مع ذلك، ليست مزيفة الحقيقة التى تأتى الآن . الألم و الدموع ، فلو أمكن أن نستدعيهما هنا، سيكونان شاهدين للحقيقة القاسية المتوحشة. لقد مات فرانسيسكو، وكان عمرى وقتها ما بين الثانية والثالثة. بعيدًا عن البيت بقليل (كنا مازلنا نقيم فى شارع E)، كان يوجد حجر من الجير من بقايا عمل ما. وبالقوة (مقاومتى الضعيفة لم تنفع فى شىء) حملنى إلى هناك ثلاثة أو أربعة أولاد أكبر منى. دفعونى، ألقوا بى على الأرض، أنزلوا لى بنطلونى ولباسى، وبينما كان بعضهم يمسك ذراعىّ و ساقىّ بدأ أحدهم فى ادخال سلك فى فتحة ذكرى. صرخت، تقلبت على الأرض يائسًا، ركلت كل ما استطعت، لكن الفعلة الوحشية كانت لا تزال مستمرة، وتوغل السلك حتى العمق. ربما الدم الغزير النازف من ذكرى الصغير أنقذنى مما هو أسوأ. امتلأ الصبيان رعبًا أو ببساطة فكروا أنهم قد تسلوا بما فيه الكفاية، فهربوا. لم يكن هناك أحد لينقذنى. باكيًا، بالدم يجرى بين ساقى لأسفل، تاركًا ملابسى فوق الحجر الجيرى، جرجرت جسدى قدر المستطاع حتى وصلت لبيتى. كانت أمى قد خرجت لتبحث عنى (لا أستطيع أن أتذكر لماذا كنت وحيدًا فى الشارع)، وعندما رأتنى فى تلك الحالة البائسة أطلقت صرخاتها: " آه ياابنى! من فعل بك هذا؟ "، لكن الدموع والصرخات لم تنفع فى شىء، فقد رحل المذنبون، وربما لا يكونون من هذا الحى. شفيت من جروحى الداخلية بكثير من الحظ

لأن السلك المرمى فى الخلاء يحتوى على كل شىء ليكون، بداية، أفضل طريق لجلب التيتانوس. بعد موت فرانسيسكو، كان يبدو أن المصائب لا تريدأن تهجر عتبة بيتنا. أستطيع أن أتخيل قلق أبوَّى عندما، بعد ذلك، عندما كنت فى الخامسة، عانيت من مشاكل مع الرقبة، فاضطروا أن يحملونى للمستشفى التى مات فيها أخى. بعدها لاحظوا أن تعبى ليس إلا التهابًا بسيطًا فى اللوزتين والتهاب فى الجيوب، وهو ما يمكن الشفاء منه فى ستة أيام، كما حدث بالفعل. قد تسألوننى كيف أنا مطلع على كل هذه التفاصيل بعد مرور كل هذا الزمن. القصة طويلة لكن يمكن تلخيصها فى عبارات قليلة. عندما واتتنى منذ فترة طويلة فكرة كتابة ذكريات و تجارب الفترة التى كنت فيها صغيرًا، عبر بخاطرى أننى يجب أن أتحدث عن موت أخى فرانسيسكو. (لأن الحياة التى عاشها كانت قليلة) . ومنذ الأبد وأنا أسمع عائلتى تقول إنه قد مات فى معهد كامارا بيستانا البكتيريولوجى، نتيجة خناق دفتيريائى، أو ذبحة، كما تقول أمى. مع ذلك، لا أتذكر أن أحدًا قد تحدث ذات مرة عن التاريخ الذى حدثت فيه الوفاة. بادئًا فى التقصى، كتبت لمعهد كامارا بيستانا الذين لطفًا أجابونى بأن أرشيفاتهم ليس بها دخول أى طفل ذى أربعة أعوام باسم فرانسيسكو سوسا. وأرسلوا لى، أظن كتعويض عن خيبة الأمل التى سببوها لى، صورة من تقييد قبولى أنا فى يوم ٤ إبريل سنة ١٩٢٨ (وتم خروجى فى ١١

من نفس الشهر)، باسم جوزيه سوسا، كما هو، باختصارين. فلا يوجد أى ظل لساراماجو، وكما لو كان هذا قليلا، قاموا بحذف حرف الجر " دى " الواقع بين جوزيه و سوسا، فاختفى. على الأقل، بفضل هذه الورقة، عرفت درجة حرارتى فى أيام التهاب اللوزتين و التهاب الجيوب تلك ... أتذكر بكل وضوح واحدة من الزيارات التى قاما بها أبواى. كنت حينها محجوزًا فيما كانوا يسمونه بالحجر الصحى. لهذا كنا نستطيع أن نتبادل النظر من خلال زجاج. أتذكر ايضًا أنه كان لدى فوق السرير لعبة، موقد من الطين كان يحيه قبس غير موجود مع قشرة موز تقوم بدور المروحة لإذكاء النار. كان الأمر كذلك كما كنت أراهم يفعلون فى البيت، والحق أننى لم أكن أعرف عن الحياة شيئا أكثر من ذلك ...

أعود إلى أخى . كما كان طبيعيًا، مهمتى الأولى، الأولى قبل كل شىء، كانت طلب إلى أمانة السجل المدنى ب جوليجا، المقر الإدارى لقريتنا الأصلية، ليرسلوا لى شهادة ميلاد فرانسيسكو سوسا، ابن جوزيه دى سوسا والسيدة ماريا دى لا بيداد، المولود بأزينهاجا، حيث إنه لابد أنه مثبت لديهم تاريخ وفاته. لا، لا يا سيدى، غير مثبت لدينا. لو حكمنا بناء على هذا المستند، ففرانسيسكو لم يمت بعد. وكان من المفاجئ أن المعهد البكتيريولوجى قد أخبرنى، بكل صرامة إدارية، انه لم يدخل عندهم، عندما كنت أعرف أنا من مصادر موثوق فيها أنه قد دخل، و الآن

تخبرنى أمانة السجل المدنى بجوليجا، بكل وضوح ، أن أخى مازال حيًا يرزق . لم يبق أمامى سوى حل واحد، البحث فى الأرشيفات الرحبة لمقابر لشبونة. بعض الأشخاص وافقوا على القيام بذلك من أجلى، وسأكون دائمًا شاكرًا لهم . مات فرانسيسكو يوم ٢٢ من ديسمبر ، فى الساعة الرابعة مساء ،وتم دفنه فى مقابر بنفيكا يوم ٢٤، فى نفس الساعة تقريبا (وكان عيد الميلاد هذا يومًا حزينًا لأبوىَّ). مع ذلك، لم تنته قصة فرانسيسكو عند هذا الحد. بكل صراحة، أعتقد أن رواية " كل الاسماء " ربما لم تكن لتوجد فى حالتها هذه التى يمكن أن نقرأها عليها الآن لو لم أسر منغمسًا، سنة ١٩٦٦، فيما يحدث داخل السجلات المدنية ...

اسمه فرانسيسكو كاريرا وكان إسكافيًا، كانت ورشته غرفة مظلمة بلا نوافذ، بباب يستطيع الأطفال فقط الولوج منه بدون أن يضطروا للانحناء، حيث كان طوله أقل من متر ونصف. دائمًا ما رأيته جالسًا فى مقعده الذى لا مسند له، خلف ترابيزة يضع فوقها عدة حرفته جاهزة، كما نرى أيضًا ، بارزة بطبقة بقايا عتيقة، دبابيس معوجة، قصاقيص جلد، إبرة روما، زرديات لاستخدام لها. كان رجلا مريضًا، مستنفدًا قبل أوانه، بعمود فقرى مشوه . كل قوته كانت تكمن فى ذراعيه و كتفيه ، البارزين كالسياج . بهما كان يعطن الجلد، يلمع الخيط ، ينقش الغرزة ويغرز المسامير الصغيرة بضربتين جافتين لم أره

يخطأهما أبدًا. وبينما كنت أسلى نفسى بعمل ثقوب فى قطعة جلد او ألعب فى الماء الذى يكتسب فيه الجلد المنقوع لمسة قابضة من حامض التنيك، كان يحكى هو حكايات عن شبابه ، تطلعاته السياسية التى لا سقف لها، المسدس الذى أروه إياه كإنذار معتم كان يتوجه، بكلمات المنذر، إلى من يخون القضية...بعد ذلك كان يسألنى كيف حال دراستى، أيِ أخبار أعرف عما يحدث فى لشبونة أما أنا فقد كنت ألف بأفضل ما أستطيع حتى أشبع فضوله. كان يملس على شعره الخفيف بالمخرز، يوقف حركة ذراعيه عند سحب الخيط، وهى إيماءات كنت أعرفها جيدًا وكانت تعلن مولد سؤال ذى أهمية خاصة. وهنا يميل فرانسيسكو كاريرا قليلا إلى الخلف بجسده مشوه الخلقة، يرفع نظارته على جبهته ويطلق سؤاله فجأة : " هل تعتقد بتعدد العوالم ؟ ". هو قد قرأ لفونتينيل، أنا لا، انا فقط بالسمع استمتع بشىء من الضوء القليل حول الموضوع. نسقت إجابة حول حركة النجوم، وتركت اسم كوبرنيكوس يسير على بركة الله، وهنا بقينا. على أية حال، نعم ، كنت أعتقد بتعدد العوالم ، المسألة تتوقف على هل هناك من يسكنها؟. سرته الإجابة، أو هكذا بدا لى، فتنفست الصعداء. بعد ذلك بسنوات أكتب عنه صفحتين و أعنونهما : " الإسكافى العجيب "، مستوحيًا العنوان بالطبع من لوركا. فبأية كلمة كنت أستخدمها غير تلك الكلمة؟ إسكافى

قريتى، فى عقد الثلاثينيات، كان يتحدث عن فونتينيل...

يتبقى شىء لم أروه عندما، فى صفحة سابقة، تحدثت عن الذهاب للسوق لأبيع الخنازير، كانت حركة بيع الخنازير بين جيرانى بأزينهاجا منخفضة فى تلك السنة ، بحيث اعتبر جدى أن أفضل حل هو أخذ الخنازير التى تبقت الى سوق سانتاريم . سألنى إن كنت أريد أن أذهب كمساعد لخالى مانويل ، فأجبته بالإيجاب، بدون حاجة لأن أفكر فى الأمر مرتين . انتعلت حذائى ذا الرقبة من أجل المشوار (فلم يكن طريقًا سهلا لأسير حافيًا) وتوجهت للرواق لكى أختار هراوة تناسب حجمى. بدأنا اليوم فى منتصف النهار، كان عمى يسير بالخلف منتبهًا حتى لا يترك أيًا من الخنازير يضل، وكنت أنا بالأمام رابطًا من كعبها الخنزيرة التى تجمع بقية الخنازير، وهى الأم الأصلية لبعضهم وأمًا مستعارة للآخرين فى بعض الأحيان. من حين لآخر كان خالى يحل محلى، وأنا، فى محله السابق ، لم يكن أمامى غير أن ألوك التراب الذى تثيره فى الطريق أرجل الحيوانات الأكثر اضطرابًا. كان الليل قد حل تقريبًا عندما وصلنا إلى كينتا دا كروث دى ليجوا، حيث كان من المتفق عليه أن ننام هناك. أدخلنا الخنازير فى الشونة وأكلنا واقفين مما كان فى حقيبة الخيش، تحت ضوء قادم من النافذة، لأننا لم نرغب فى الدخول أو لأن خولى العزبة لم يدعنا للدخول، وهو الأقرب للصواب...

عندما كنا نأكل، جاء صبى ليقول لنا إنه يمكننا أن ننام مع الخيول . أعطانا بطانيتين ومشى، لم يكن باب الإسطبلات يغلق وهذا الأمر كان ملائمًا لنا، حيث إننا فى الفجر يجب أن نرحل، قبل ظهور الضوء الاول فى السماء، لنصل إلى سانتاريم عند فتح السوق. كان سريرنا أحد أطراف المعلف الذى يشغل كل الحائط الواقع فى عمق الإسطبل. كانت الخيول تصهل وتركل الأرضية الحجرية. صعدت فوق المعلف ونمت فوق التبن الرطب، كما لو كنت فى مهد ملفوفًا بإحدى البطانيتين، متنفسًا الرائحة القوية للخيول، المضطربة طوال الليل أو هكذا بدوا لى عندما استيقظت فى فترات من النوم. شعرت بجسدى مرهقًا، بساقين وقدمين لم تعرف هذا الإرهاق من قبل. كانت الظلمة ساخنة وكثيفة، وكانت الخيول تنفض شعر عرفها بقوة، أما خالى، الذى يكاد رأسه يلمس قدمى، فقد كان نائمًا فى سابع نومة. وبمجرد استغراقى فى النوم العميق، استيقظت ، وكنا مازلنا فى الفجر، عندما نادنى " : انهض يا زى، علينا أن نرحل ". جلست فوق المعلف بعينين متهالكتين من النعاس ومذهولتين من الضوء المفاجئ. قفزت على الأرض وخرجت للخارج: أمامى وجدت قمرًا مستديرًا وضخمًا، الأبيض الأكثر بريقا حيث ضوء القمر كاملا، وعلى العكس تمامًا، الأسود الأكثر كثافة فى ظلاله. أبدًا لم أر قمرًا بتلك الصورة مرة أخرى. مضينا نبحث عن الخنازير وهبطنا حتى الوادى، بكل حذر

ممكن، لأنه كان هناك عشب عال وكثير من العوسج وهوات، ومن السهل أن تتفرق وتتوه الخنازير المرتبكة بسبب النهوض المبكر. عندما وصلنا آخر الوادى كان الأمر أكثر يسرًا. مشينا على طول مزرعة عنب ناضج، من خلال طريق مغطى بالتراب وكانت رطوبة الليل مازالت تغطيه، قفزت إلى داخل العنبة وقطعت عنقودين كبيرين وأدسستهما فى قميصى بينما كنت أتلفت حولى لأرى إن كان هناك أى حارس موجود. عدت إلى الطريق وقدمت أحد العنقودين لخالى. مضينا سائرين آكلين العنب البارد و الحل، هذا العنب الذى من متانته كان يبدو متبلورًا. بدأنا نصعد لسانتاريم عندما سطعت الشمس. وظللنا فى السوق طوال ساعات الصباح وجزءًا من الظهيرة. لم نستطع أن نبيع كل الخنازير، لكنها لم تكن تجارة خاسرة. قرر خالى مانويل، لا أتذكر لأى سبب، إن كان قد أبدى أسبابًا، وهو أمر قليل الاحتمال، أن يكون طريق العودة للبيت من خلال التلال المنخفضة الواقعة على طول هذا الجزء من التاجو. رغبة مباركة، بفضلها استطعت التعرف على أول طريق صاعد رومانى بالنسبة لى...

كانت الأمطار تتساقط، والرياح تغربل الأشجار المتساقطة أوراقها، ومن الأزمنة الماضية تأتى صورة، صورة رجل طويل القامة نحيف البدن عجو ، الآن يقترب عبر طريق مغمور بالماء. يحمل عصا الراعى على كتفه، يرتدى معطفًا قديمًا ملطخًا بالطين، تنزلق

عليه كل قطرات مياه السماء. أمامه تأتى الخنازير، برءوس مطرقة ، تحك الأرض ببوزها. هذا الرجل الذى يقترب هكذا، غير واضح الملامح بين أحبال المطر، هو جدى. يأتى متعبا، هذا الرجل العجوز. يجر خلفه سبعين عاما من الحياة الخشنة، من الحرمان، من الجهل. ومع كل هذا هو رجل حكيم، صامت، يفتح فمه فقط ليقول ما هو ضرورى. يتحدث أقل القليل لدرجة أننا نصمت لننصت إليه عندما يعتلى وجهه شىء هكذا كضوء الإنذار. له طريقة نادرة فى النظر لما هو بعيد، وقد يكون هذا البعيد هو الجدار المواجه له. يبدو وجهه منحوتًا بقدوم، ثابتا بالرغم من أنه معبر، بعينين صغيرتين وحادتين، تلمعان من حين لآخر كما لو كان شيئا مما يفكر فيه قد أدركه بشكل نهائى. إنه رجل شبيه برجال كثيرين آخرين من أبناء هذه الأرض، من أبناء هذا العالم، ربما هو آنيشتين لكنه محطم تحت جبل المستحيلات، او فيلسوف، او كاتب أمى عظيم. إنه شىء لا يمكن أن يكون أبدًا .

أتذكر ليالى الصيف المعتدلة، تلك الليالى التى كنا ننام فيها تحت شجرة التين الكبيرة، أسمعه يتحدث عن الحياة التى عاشها، عن طريق الحج إلى سانتياجو الذى يبرق تحت رءوسنا، عن المواشى والحيوانات التى يربيها، عن قصص و أساطير طفولته البعيدة. كنا نخلد للنوم متأخرًا، نلف أجسادنا جيدًا بالبطاطين لنقى أنفسنا برد الفجر. لكن الصورة التى لا تغيب ابدًا عن ذهنى فى هذه الساعة الحزينة هى صورة

الرجل العجوز الذى يسير تحت المطر، صلبًا صامتًا، كمن يسير صوب قبلة لا يمكن تغييرها. كالموت . هذا الرجل العجوز، الذى ألمسه الآن بيدى، لا يعرف كيف سيموت. مازال لا يعرف،أنه قبل يومه الأخير بأيام قليلة سيشعر مسبقًا أن النهاية قد جاءت، فيمضى فى حديقته، من شجرة لشجرة، معانقا الجذوع ومودعها ، كما يودع الظلال الصديقة ، و الثمار التى لن يأكلها مرة أخرى. حيث سيأتى الظل الأكبر، فى حين أن الذكرى لن تبعثه فى الطريق المغمور بالماء أو تحت السماء المقببة وسؤال النجوم الأبدى. فأية كلمة سيتفوه بها حينذاك؟.

أما أنت يا جدتى ، فقد كنت جالسة على عتبة بيتك ، هذا البيت المفتوح أمام الليل الهائل و المرصع بالنجوم، أمام السماء التى لا تعرفين عنها شيئا وأبدا لن تسافرى عبرها ، أمام صمت الحقول و الأشجار المسرورة، وقلتِ، بصفاء سنواتك التسعين ولهيب مراهقتك الذى لم تفقديه أبدًا : " الدنيا جميلة وأنا يحزننى الموت ". هكذا قلتِ، وأنا كنت بجوارك.

من بين الخنازير الصغيرة حديثة الولادة كان يظهر من آن لآخر خنزير ضعيف يعانى البرد بشكل لا يمكن تجنبه، فيصير فى حالة سيئة. مع ذلك، وأنا على دراية بذلك، لم يمت أحد من تلك الخنازير. فى كل ليلة، كان جدى وجدتى يذهبان للزريبة ليبحثا عن الثلاثة أو الأربعة خنازير الأكثر ضعفًا، فينظفان

الرجل العجوز الذى يسير تحت المطر، صلبًا صامتًا، كمن يسير صوب قبلة لا يمكن تغييرها. كالموت . هذا الرجل العجوز، الذى ألمسه الآن بيدى، لا يعرف كيف سيموت. مازال لا يعرف.أنه قبل يومه الأخير بأيام قليلة سيشعر مسبقًا أن النهاية قد جاءت، فيمضى فى حديقته، من شجرة لشجرة، معانقا الجذوع ومودعها ، كما يودع الظلال الصديقة ، و الثمار التى لن يأكلها مرة أخرى. حيث سيأتى الظل الأكبر، فى حين أن الذكرى لن تبعثه فى الطريق المغمور بالماء أو تحت السماء المقببة وسؤال النجوم الأبدى. فأية كلمة سيتفوه بها حينذاك؟.

أما أنت يا جدتى ، فقد كنت جالسة على عتبة بيتك ، هذا البيت المفتوح أمام الليل الهائل و المرصع بالنجوم، أمام السماء التى لا تعرفين عنها شيئا وأبدا لن تسافرى عبرها ، أمام صمت الحقول و الأشجار المسرورة، وقلتِ، بصفاء سنواتك التسعين ولهيب مراهقتك الذى لم تفقديه أبدًا : " الدنيا جميلة وأنا يحزننى الموت ". هكذا قلتِ، وأنا كنت بجوارك.

من بين الخنازير الصغيرة حديثة الولادة كان يظهر من آن لآخر خنزير ضعيف يعانى البرد بشكل لا يمكن تجنبه، فيصير فى حالة سيئة. مع ذلك، وأنا على دراية بذلك، لم يمت أحد من تلك الخنازير. فى كل ليلة، كان جدى وجدتى يذهبان للزريبة ليبحثا عن الثلاثة أو الأربعة خنازير الأكثر ضعفًا، فينظفان

بسبب الحنين، يدخل من الباب الخطأ. كانوا لا يبقون هناك وقتًا طويلا . كانت أنثى الخنزير تعرف طريقة رضاعة كل صغير من صغارها من خلال أسلوب مصه لثديها ليسحب اللبن ، وبالتالى فقد كان الدخيل مرفوضًا على الفور، بالرغم من أن هذه الأمور تبدو أكذوبة لمن لم يرها أو من لم يسمع أحدًا يتحدث عنها . بل ما يمكن أن أحسمه بشدة هو العضة، فلا أتذكر أن الصغير قد عض أمه أبدًا . اكتشف خنزير صغير مسكين، متأخرًا جدًا، أن تلك الأم لم تكن أمه، فبدأ متكدرًا يهمهم حتى ننقذه . قال لى جدى أو جدتى :« زيزيتو، اذهب لترى هذا الصغير». فقمت ، أنا التلميذ النجيب فى مسائل تربية الخنازير، وأخذت الدخيل من رجله الخلفية، وأسندته من بطنه باليد الأخرى، وسقته لمنزله الحلو، إلى الرضا الذى يشعره بسماع صوت أمه الشرعية وهى تخرخر من المتعة، لأن صغيرها السفيه قد استطاع العثور على طريق العودة. أما كيف كنت أعرف إلى أية زريبة ينتمى الصغير الضال؟ فلا شىء أسهل من ذلك . فقد قمنا بقص شعر كل رضيع طبقًا للزريبة التى ينتمى إليها، فجعلنا لصغار الزريبة الأولى قصة واحدة، والثانية اثنتين، و الثالثة ثلاث وهكذا بالتوالى. الأصعب من ذلك كان نظام العلامات الذى كانت تتبعه جدتى لتعرف كم أنفقت من المال فى المحل، ولم أرها أبدًا تخطئ فى سنت واحد. كانت ترسم فى كل لوحة دوائر لها صليب بداخلها، ودوائر

أخرى بلا صليب، وصلبان خارج الدوائر، وقطعًا كانت تسميها عصى، ورسما آخر لا أتذكره الآن . مع صاحب المحل، الذى كان يدعى فيرا، رأيتها عدة مرات تطابق حساباتها الخاصة بالورقة التى كان هو يقدمها لها وكانت تفوز دائمًا فى تصفية الحسابات. لن أسامح نفسى ما حييت على تقاعسى عن طلب واحدة من تلك اللوحات منها، فقد كانت هى البرهان الوثائقى القاطع ، بل وحتى نستطيع أن نقول إنه البرهان العلمى، على أن جدتى جوزيفا أعادت اختراع علم الحساب، وهو الحدث الذى لا يعد نادرًا فى عائلتنا لو تذكرنا أن جوزيه دينيس حل المشكلة التاريخية لتربيع الدائرة قبل أن يتم العاشرة ... وبالإضافة للزرائب والأحواض التى تتلمظ فيها الخنازير الماء المخلوط بالعجين، وأحيانا المنقوع فيه بعض قبضات من عجين الذرة، كان يوجد فى هذا الجزء من الحديقة عشة دجاج، حظيرة أرانب، وأسطبل للحمارة. أما عن عشة الدجاج، فمهما بذل المرء من جهد، فليس بها أشياء كثيرة تذكر، فمن المنتظر أن تتعايش بداخلها عدة دجاجات بالإضافة لديك يجامعها، أن يوجد بداخلها بيض ليباع، وبيض يخرج كتاكيت، وبيض يؤكل على الترابيزة فى يوم ميلاد الملك . لم تكن عشة دجاج جدى شيئًا غير ذلك وكان بداخلها كل ما بداخل العشش العادية ، باستثناء كم الدجاج و إنتاجه بالتأكيد. أما حظيرة الأرانب، فلها قصة. كان يزورها خالى كارلوس من حين لآخر،

ودائمًا فى ساعة متأخرة من الليل، فى الفترات التى فيها يكون خارج سجن الميدان أو غير هارب فى أى مكان للاشتباه فى سرقته لشىء، خاصة الأسلاك النحاسية الخاصة بالتليفونات، وهى السلعة التى كانت تلاقى التقدير على وجه الخصوص و التى ببيعها كان يتناول المسكرات، لم يكن رجلا سيئًا، لكنه كان كثير السُكر ويصعب عليه أن يفرق بين الأشياء الخاصة به و الأشياء الخاصة بالآخرين. أنا لا أعتقد أنه كان يفضل لحم الأرانب على لحم الدجاج ، لكن الأرانب كانت، لو أحسنت القول ، مخلوقات خرساء ، تهمهم فقط، لا تعرف الاعتراض عندما يمسكونها من أذنيها و يدخلونها فى الجوال ، بينما الدجاج مخلوقات مزعجة تثير الضجيج القادر على إيقاظ كل الجيران . عندما كانت جدتى تنهض من سريرها ، كان ذلك بشكل عام مع ظهور الخيط الأول من النهار القادم من بعى، كانت تعد نفسها أكثر نساء العالم حظًا لو ترك لها كارلوس ميرلينيو، إحسانًا منه، أرنبًا أو أرنبين، كذكرى جليلة لرحلته الليلية. أمر لا يغتفر، مع ذلك نعرف جميعًا أن أرقى العائلات ليست كاملة. على أية حال، تلك العائلات الراقية يظهر فيها من يسرق أكثر من الأسلاك التليفونية والأرانب، وبالرغم من كل شىء يستطيع أن يبدو شخصًا نزيهًا أمام أعين الناس أجمعين. فى تلك الفترات وتلك الأماكن كانت ظواهر الأمور هى بواطنها و بواطن الأمور هى ظواهرها. ربما الشىء الوحيد الغريب فى " البيت

الجـمـيل "هـو أسطبل الحـمـارة سـالف الـذكـر. هذا الأسطبل الذى يبقى اسـمـه من زمن كـان فـيـه مـأوى لحـمـارة لم أصل للتـعـرف عليهـا. وبالـرغم من مـرور سنوات طوال على غـيـاب الحـمـارة، ظل الاسـم للأبد، وحتى لا يفقـد الأسطبل مـلامحـه الأولى، كان يحتفظ بإناء الطعام القديم، كما لو كانت روح الحمارة تعود لمكانها القديم كل ليلة لتغذى ذاكرتها من الفول والتبن. وبالإضـافـة للفـرن الذى يسـوى فـيـه الخـبـز، الواقع بجانب باب المطبخ ، تكتمل قائمة جرد هذا القسم من الحديقة بذكر زريبة أخرى أكبر حجمًا من الزرائب السـابقة والتى كانت تسع فقط الخنزيرات بذريتهـا، الملتصقات الأجساد لضيق المكان على عددها. كانت هذه الزريبة الكبيرة تأوى مع الاختلاف من عام لعام، خنزيرًا يتم اختيـاره لتسمينه، وهو الحيـوان المنكوب الذى كان علىَّ أن أنقله من محل إقامته، مكبل اليدين، على الأقل مرة واحدة فى الأسبوع، فأجعله يتقيأ التبن سيئ الرائحة الذى أكله، المدنس بالغيط، وأعطيه تبنًا آخر جديدًا لا يتأخر حتى ساعة ليفقد رطوبة رائحته الطبيعية. ذات يوم، كنت مشغولا أنا فى هذه العملية عندما بدأت السماء تمطر فى البداية قطرات كثيفة ومـتـنـاثرة، ثم مـا لبـثت أن أمطرت بشـدة وغـزارة. اعـتـقـدت أنه من المناسب أن أتراجع وأحـمى نفـسى هكذا فى أسطبل الحـمـارة، لكن صوت جدى أوقـفنى فى منتـصف الطريق : " من بدأ فى عـمل فلينهـه، فالمطر يبل الجسد لكنه لا يهشم العظم ". وكان مُحقًا

فعدت أدفع قيد الخنزير، وبلا سرعة أو عجلة، كعامل أمين، أنهيت مهمتى. كنت أتصبب قطرات المطر، لكننى كنت سعيدًا .

كان يفصل بين قسمى الحديقة سياج بدائى من العصى المثبتة فى الأرض، يربطها حاجز حديدى لا يمكن تجاهله. بمجرد الدخول ، على اليد اليسرى ، كان يوجد كدس التبن هائل الحجم ، بشكله الهرمى التقليدى وبقاعدته المستطيلة التى تضيق كلما ارتفع لأعلى، كنتيجة خفية لعمل جدتى المتعب وقت الفجر، عندما كانت تذهب مع زميلات أخريات، مسلحة بجرافة و قماشة وحبل، ليبحثن عن جدامات محصول القمح من وراء الحراس. وبجانب كدس التبن، على مسافة قليلة جدًا من الأغصان التى تلامس جزءه العلوى، كانت توجد شجرة التين الكبيرة، أو ببساطة "شجرة التين " حيث كانت توج شجرة تين أخرى إلا أنها لم تنم أبدًا، سواء كان ذلك راجعًا لطبيعتها، أو بسبب الهيبة التى تفرضها الشجرة المحنكة. كانت شجرة الزيتون أيضًا شجرة موقرة، تلك الشجرة ذات الجذع المعوج الذى كان يستند عليه الحاجز الذى يفصل قسمى الحديقة. وبسبب أشجار العوسج المحيطة بها والأسلاك الشائكة التى كانت تحرسها ،تهدد كم يقترب منها، كانت، من بين الأشجار المحيطة ببيت جدى، الوحيدة التى لم أتسلقها أبدًا. كانت بالحديقة أيضًا عدة أشجار أخرى، لم تكن كثيرة، فقط شجرة برقوق برى أو اثنتان تفعلان

أفضل ما يمكن أن تفعلا، وشجرة رمان قليلة السخاء، وبعض أشجار السفرجل التى كانت تعطر المكان بثمارها لمسافة عشر خطوات، بالإضافة لشجرة الرند وشجرة زيتون أخرى. أما الأرض القليلة الباقية فكانت من أجل زراعة الخضراوات، خاصة زراعة الكرنب البرتغالى، الذى كان ينمو طوال العام ومن أجل ذلك كان يشكل العنصر الأساسى فى الأكل المحلى، فكان طبقًا رئيسيًا الكرنب بالفاصوليا البيضاء ، بدون أى إضافات سوى الزيت، وأحيانا فتات الخبز المصنوع من الذرة والذى كان يوضع فى قعر الطبق قبل توزيع الطعام. كانت الحديقة فى هذا الجزء منطقة ضيقة تصل مساحتها إلى خمسين أو ستين مترًا، وكانت تحتوى على شجرة زيتون كانوا يطلقون عليها "من السلفادور" ومن الجانب الآخر كان يوجد سياج كثيف يتكون من قصب حى وأشجار العوسج والليف الضرورية وبعض أشجار البيلسان الأسود. بالقرب من هذا السياج التقطت، مرة أو مرتين، جلود الحيات الجافة التى تحررت منها عندما لم يسعها العبور بها. كانت هذه الجلود مفيدة لأمراض الخنازير التى لم أعرفها. وبقدر الاقتراب من النهاية، كانت الأرض تضيق لتنتهى برأس، فتشبه الأرض ذنب السلحفاة. فى هذه النقطة كنا نذهب أنا وجدتى لنتبرز عندما تحصرنا الحاجة ولم يكن أمامنا وقت لندخل فى شجرة الزيتون. (لابد أن جدى كان يفك حصره فى أى مكان يسير فيه مع الخنازير).

أتمنى ألا يفاجأ القارئ من التعبير الملطف: نتبرز. لقد كان هذا هو قانون الطبيعة. فلابد أن آدم وحواء قد فعلا نفس الشيء في ركن ما من الجنة .

كان الصندوق أزرق، مدهونًا بالزيت ، باللون المتعب للسماء المغيمة. وكان يوجد فى الغرفة الخارجية، بجانب باب الشارع، على يمين الداخل. كان كبيرًا، كبيرًا جدًا، هذا الصندوق المخصص لتخزين الفول . كانت جدتى توصينى ألا أفتحه لأن غبار الفول كان يؤدى للحكة الفظيعة، فيكسى جلد الإنسان المهمل بالطفح الجلدى (وهو الاسم الذى كنا نطلقه على حبوب الجلد المزعجة). كان جدى المزارع أمام المسائل المعقدة فى تكوين الشخصية والوسائل اللازمة لتقوية حصن النفس، تلك الأفكار الإسبرطية على الإطلاق، يضحك بسخرية من تلك التحذيرات و التنبيهات وكان يسألنى من حين لآخر، عند عودته للبيت بصحبة المواشى عند غروب الشمس ، إن كنت قد فتحت مخزن الفول أم لا.

لم أكن فى ذلك الحين، و لا اليوم، مدمنًا للبقول الأكالية، كى أرفع غطاء الصندوق الهائل لأرى مجرد حبوب الفول التى يمكن أن أرى أمثالها بخارجه، والتناور بلا خطر لم يكن شيئًا يثير فضول سنواتى العشر، تلك السنوات المليئة بمغامرات من نوع آخر، مثل الاكتشافات المتعلقة بضفاف نهر الألموندا والتاجو أو المتاهات المتشابكة بالباولار دل بوكيلوبو. لكن

سخرية الجد الوديعة لمرات كثيرة حكت حساسية الحفيد وأثارت كبرياءه الصغير، ففى ذات يوم، عندما كان بمفرده فى البيت ، توجه صوب الصندوق ، وبمجهود كبير ، رفع الغطاء الثقيل، حتى صار بمحاذاة ذراعيه وبعدها دفعه ليصطدم بالحائط الجيرى . وهنا وجد الفول . قليل من الغبار الناعم المستتر بلونه الغامق اهتز مع تيار الهواء المفاجئ ولمس يده وساعده ، وخلال ثوان ظهر الطفح الجلدى المعلن وأعلنت الحكة الخجولة عن نفسها . لكن الصبى العنيد الذى بدت حالة يده تجربة غير كافية، قام بوضع يده فى الفول المهلك، جاعله يصدر صوتًا كالحصى، رافعًا سحابة من الغبار. ربما يسع المجال هنا لأصف العواقب الوخيمة لهذا الفعل لولا أن هناك حكاية أخرى أود أن أسردها . عندما تحركت صوب أحد أطراف الصندوق لأحيط به وبكل سهولة أصل للحافة العليا للغطاء و أنزلها بعد ذلك، انتبهت أن جانبه الداخلى مبطن بورق جرائد . لم يكن بيت جدى بيتًا قارئًا، فقد كان كل منهما أميًا، كما سبق وذكرت وكررت . ربما لو مر علينا ، بإذن من الجماعة، أحد الرجال الذين يجيدون قراءة الحروف، مثلا، فستكون الحروف الكبيرة و الكبيرة جدًا . إن وجود هذا الورق من جريدة " او سيكولو " . التى تعلن بكل ثقة فى أعلاها أنها الجريدة الأكثر انتشارًا فى البلد، وإن كنت أقول " بكل ثقة " فذلك لأنها كانت الجريدة الوحيدة التى تصل لأزينهاجا . أقول إن وجود تلك

الأوراق يمكن أن يعنى فقط أن جدتى قد طلبتها من محل السيد جواو فيرا، الذى كانت زبونته، بعد أن قرأت وتهالكت . فلو كان جداى ناعمين ومن أصحاب الجلد الرقيق ، لقبلت اليوم احتمالية أن تكون تلك الأوراق فى مكانها هذا لتغطية شقوق غطاء الصندوق الخشبى القديم ، تلك الشقوق الموجودة بالفعل، وسيمنعان بهذه الطريقة اختراق غبار الفول البنى الخطير بسوء نية للقبيلة العزلاء من أبناء ميرلينيو وكايكسينيا وساراماجو. احتمال آخر، وهو احتمال فنى، وهو أن أمام عينى جدتى كانت الحروف والكلمات والصور أشياء جذابة، كما ستصير الكتابة الصينية أو العربية جذابة بعد ذلك بسنوات للحفيد نفسه، حتى لا نذهب بعيدًا. مازال اللغز غامضًا.

وكان عمرى عشر سنوات ، لكننى كنت أقرأ بحنكة وأفهم تمامًا ما أقرؤه، بالإضافة لكونى لا أرتكب، فى هذه السن الرقيقة، أخطاء إملائية، وهو الشىء الذى من المناسب أن أقوله سريعًا، كان لا يمثل فى هذا الزمن أى استحقاق لميدالية. سيفهم بالتالى، بالرغم من الحكات غير المحتملة التى كانت تلهبها الرطوبة البلسمية لدلو الماء البارد أو بعض تدليكات الخل ، أننى كنت أستغل الفرصة لأنهمك فى القراءة المتنوعة التى تهبنى إياها الصدفة . كان صيف ١٩٣٣، وكان لدى عشر سنوات، ومن كل الأخبار التى نشرت فى "اوسيكولو " فى تلك الصفحات ليوم ما من العام الماضى لم يتبق فى ذاكرتى سوى ذكرى واحدة: صورة،

مرتبطة بالإسطورة البيانية، التى كان يظهر فيها المستشار النمساوى دولفوس أثناء حضوره لعرض عسكرى ببلده . فى صيف ١٩٣٣، منذ ستة أشهر مضت اعتلى هتلر السلطة فى ألمانيا، لكن عن هذا الخبر، الذى قرأته فى يومه فى " جريدة الأخبار " التى أحضرها أبى لبيتنا فى لشبونة، لا أتذكر شيئًا. أنا فى إجازة، فى بيت جدى لأمى، وبينما كنت نصف شارد أحك ذراعى بنعومة ، فاجأتنى فكرة كيف يكون مستشارًا (هل كان مستشارًا ؟) وهو قصير القامة. لم يكن أى منا، لا دولفوس ولا أنا، يعلم أن النازيين النمساويين سيغتالونه فى العام التالى.

كان فى هذه الفترة (ربما مازلنا فى عام ٣٣، أو ربما فى ٣٤، إن لم تلتبس علىَّ التواريخ) عندما كنت عابرًا ذات يوم بشارع لا جراسا، طريقى المعتاد بين لا بينيا دى فرنسا، حيث كنت أعيش، و سان فيسنتى، حيث كان يقع ليسيه جيل فيسنتى، رأيت جريدة معلقة عند باب كشك سجائر وجرائد، كان يقع بالضبط أمام السينما الملكية القديمة، وكانت الجريدة تقدم فى صفحتها الأولى رسمًا رائعًا ليد تستعد لتمسك بشىء. وتحت الصورة كان مكتوبًا العنوان التالى : "يد من حديد تغطيها قفازات من القطيفة ". كانت الجريدة هى " سيمبرى فيكسى " الأسبوعية الفكاهية، أما الرسام فكان فرانسيسكو فالينسا، أما اليد فكانت ترمز لسالازار .

كلتا الصورتين - صورة دولفوس مبتسمًا عند رؤيته مرور العرض العسكرى ، من يدرى إن كان هتلر قد أصدر عليه الحكم بالإعدام وقتها أم لا، وصورة اليد الحديدية المنتسبة لسالازار المختبئة تحت نعومة القطيفة المنافقة - كلتاهما لم تغب عنى طيلة حياتى . ولا تسألونى عن السبب. أحيانًا كثيرة ننسى ما نحب أن نتذكره، وأحيانا أخرى، وبشكل متسلط لا فرار منه، مقاومين المؤثر نفسه، تأتينا من الماضى صور، كلمات متناثرة، إشراقات، إلهامات، بدون أن يكون لها تفسير، بدون أن نستعيد ذكراها، لكنها هاهنا موجودة وهذه الصور هى التى تخبرنا أنه فى تلك الفترة بالإحساس لا بالعلم اليقينى، أن هتلر وموسولينى وسالازار لم يكونوا سوى فروع من نفس الشجرة، أبناء عم من نفس العائلة، يتشابه جميعهم فى اليد الحديدية، وإن اختلفوا فى سمك القطيفة وفى أسلوب الضغط.

عندما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية، كنت قد انتقلت من لپسيه جيل فيسنتى إلى مدرسة ألفونسو دومينجيس الصناعية، بخبريجاس، وكنت أبذل قصارى جهدى لأتعلم، البرتغالية، الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، تصميم الماكينات، الميكانيكا والتاريخ، بالإضافة لتعلم شىء من الفرنسية والآداب (فى هذا الزمن، وليصبكم الذهول، كانت الفرنسية والآداب تدرس فى المدارس الصناعية...)، وكانت هذه، فى النهاية، هى المواد التى تدرس هناك، وكنت

أذاكـر لأتوغل، رويدًا رويدًا، فى أسـرار مـهنة صـانع الأقـفـال الميكانيكيـة. كنت أقـرأ فى الجـرائد أنهم يطلقون على محاربى أحد الجانبين اسم: الحمر، أما الآخـرون فكنا نعرفهم بالقـومـيين، وبما أن الجـرائد كانت تنشر أخبار المعركة، مصحوبة أحيانا بالخرائط، فقد قـررت، كما رويت قبل ذلك، أن أمتلك خريطتى الخاصـة، التى فيها، متـفقًا مع نتـائج المعـركـة، كنت أغرز أعلامًا صغيرة ذات ألوان مختلفة، أعتقد أنها حمراء وصفراء، وبفضلها كنت أعتقد أننى متابع جيد لتطور العمليات، كما يقول التعبير المقدس. بقيت على هذا الحال حتى أدركت فجأة أن العسكريين المحالين على المعاش كانوا يخدعوننى باستخدام عملية الرقابة على الصحافة، جاعلين من أنفسهم، بكل احترام، اليد الحديدية والقفاز القطيفى. كانوا يعلنون فقط عن الانتصـارات التى من نصـيب فـرانكو. قـمت إلقـاء الخـريطة فى القـمامـة، وضاعت الأعـلام الصـغيـرة. وربما كان هـذا أحد الأسباب التى من أجلها، عندما أرسلونى مع زملائى بليسيـه كـامويس، حيث كـانوا يوزعـون الزى الموحـد الأخـضـر والبنى للطلائع البرتغالية، عثرت على الطريقة التى تجعلنى لا أخرج أبدا من نهاية الصف الذى كان يصل حتى الشـارع ، وفى أحـد هذه الصـفـوف جـاء أحـد العـسكر (هكذا كانوا يسمونه) ليخبرنا أن الزى قد نفد. فى الأسابيع التالية كانت هناك توزيعات أخرى للقبعات والقمصان والبنطلونات، لكننى، برفقة آخرين، كنت دائمًا أرتدى

الملابس المدنية ، فى مواجهة العروض العسكرية، غير ماهر بالمرة فى استخدام السلاح ، وخطير للغاية فى رمى الهدف . فلم يكن هذا مصيرى.

كان أحد أصدقائى فى الليسيه صبيًا سمينًا جدًا، حزينا، يضع نظارة كبيرة مستديرة على عينيه، كان يعطينى دائمًا الانطباع بأن رائحته رائحة دواء. كان يغيب كثيرًا عن المدرسة، لكنه كان غيابًا مبررًا بالمرض. أبدًا لم نعرف إن كان سيظهر هذا الصباح أم لا، وإن ظهر هل سيتم اليوم أم لا. وبالرغم من كل شىء، كان تلميذًا ذكيًا و نجيبًا، وكان أحد الذين يحصلون على أعلى الدرجات. كان معفيًا من حصة التربية الرياضية، ولم يكن يستطيع الاقتراب من لعباتنا المضطربة. لم أره أبدًا من قرب فى الفسحة. كانوا يأتون به إلى الليسيه فى سيارة ويعودون به فى نفس السيارة، ونظرًا لعدم وجود مطعم بالمدرسة، كان التلاميذ يتناولون طعامهم فى المكان الذى يقدمون لهم فيه الطعام، فى الممرات، فى الدهليز، فى الرواق المسقوف التابع للطابق الذى يشغله الليسيه. أما هو، فلأنه كان يتمتع بصلاحية خاصة من المدير ، فقد كانت الخادمة تحضر له الطعام الذي كان مازال ساخنًا، وتقدمه له، بالمفرش و فوطة السفرة ، فى إحدى صالات الطابق الأرضى، ليأكل فى هدوء ، بعيدًا عن الضجيج والاصطدامات. كان هذا الأمر يسبب لى الحسرة. ربما لاحظ هو هذا الأمر، لأنه سألنى ذات يوم إن كنت لا أريد صحبته. بالطبع لم

يكن يرغب أن أصحبه فى الطعام، وإنما الصحبة التقليدية. وأجبته بالتأكيد. واتفقنا أن أصاحبه بعد أن أنتهى من تناول سندوتش السجق المعتاد، أو الجبن أو عجة البيض، فى الطابق العلوى، بعدها ، وقد انهى غداءه، نصعد معًا للفصل. بوجهه المستدير و الحزين كان يمضغ الطعام ببطء ، بلا شهية ، اصم أمام توسلات الخادمة : " قطعة أخرى، يا طفلى، قطعة صغيرة ... " . حينها، ولأسباب معروفة، عندما أطل علينا اليوم التالى، لأشجعه، بدأت فى عمل الأراجوز، كأن أتصنع أننى التقيت بنفسى، والحق أن فنونى الكوميدية البدائية آتت أكلها. كان يضحك، يأكل بدون أن ينتبه، وكانت الخادمة مسرورة للغاية. لابد أنهما قد تحدثا عنى أمام العائلة، لأنه دعانى للذهاب لبيته ذات يوم، الذى لم يكن سوى قصر (هكذا بدا لى بيته قصرًا) وكان يقع فى الطريق الصاعد لكروث دى بيدرا، فوق قمة حديقة مدرجة تطل على نهر التاجو. كان هو وأخت صغيرة له فى استقبالى، وجلست أمه معنا عدة دقائق وانسحبت. كانت ساعة تناول الشاى. تناولنا وجبة خفيفة بين الغداء و العشاء فى صالة ذكرنى اثاثها ببيت عائلة فورميجال بالرغم من أنه أقل هيبة وخال من الدمقس. أرادا أن يبثا فىَّ الخوف بلعبة قاما فيها بوضع شريط مطاط يملأ بالهواء، تحت فنجانى وتحت المفرش، يحركه صديقى من الجانب الآخر للترابيزة. رأيت الطبق والفنجان يقفزان، لكننى لم أخف. هنا كان يوجد أثر، وكان من

الضرورى أن أتحرى السبب. رفعت المفرش، ومتنا جميعًا من الضحك. بعدها ذهبنا للحديقة ولعبنا إحدى العاب الورق (التى تكمن فى لوح مائل، مقسم وداخله أرقام، نقوم فيها بإلقاء القرص، محاولين الحصول على أعلى نقاط ممكنة) وخسرت. وعندما التحقت بمدرسة ألفونسو دومينجيس زرته للمرة الأخيرة فى بيته. أريته، بكبرياء كنت أعلم أنه مزيف، الكارنيه الذى يثبت هويتى كتلميذ بالتعليم الفنى (فى الليسيه لم يكن لنا كارنيهات)، لكنه لم يعطه أى اهتمام، نظرة سريعة وانتهى الأمر. ولم أعد أعرف عنهم شيئًا. كان القصر فى طريقى وأنا ذاهب لمدرسة *ألفونسو دومينجيس، لكننى أبدًا لم أنحرف عن* طريقى عدة أمتار لأطرق بابهم. أعتقد أننى شعرت وقتها أن هذا المكان لم يعد يفيدنى فى شىء.

ذات يوم، فى حصة الميكانيكا، كسرت مسطرة حرف تى. لم يكن المدرس قد وصل بعد وكنا نحن نستغل الوقت بإثارة الضوضاء المعتادة، البعض يحكى النكات، و البعض الآخر يتبادل إلقاء الطائرات أو الكور الورقية، و البعض الثالث يلعب لعبة ضربة الكف (وهى تدريب رائع على التركيز، لأن اللاعب صاحب اليد السفلى يجب أن يحاول سحب يده فى الوقت المناسب قبل أن يضربه اللاعب الآخر صاحب اليد العليا) أما أنا، فلأوضح بالمثال لعبة الرماية، لا أعرف لأى غرض كان ، ربما لأننى شاهدتها فى فيلم ما، قمت بمسك المسطرة كما لو كانت رمحًا وجريت

صوب السبورة ، التى من المفترض أنها العدو الذى يجب أن أرديه من أعلى الفرس . لكننى حسبت المسافة خطأ فجاءت الصدمة قوية لدرجة تكسرت فيها المسطرة إلى ثلاث قطع فى يدى . احتفل البعض بالعمل البطولى بالتصفيق، بينما التزم البعض الآخر بالصمت ناظرًا صوبى بهذا التعبير الوحيد الذى يعنى، بكل لغات العالم ، " ستتحمل ثمنها "، بينما أنا، كما لو كنت أعتقد فى إمكانية حدوث معجزة، كنت أحاول تصليحها بضم الأجزاء المكسورة على بعضها. لكن المعجزة لم تحدث، فمضيت أضع القطع فوق المنصة، حينها دخل المدرس . " ماذا حدث ؟ "، سأل. فأجبته برد مرتبك : (كانت المسطرة فى الأرض فوطأتها بلا قصد يا سيدى المهندس) فتصنع أنه يصدقنى. " أنت تعرف النظام، عليك أن تحضر غيرها "، قال. هكذا كان وهكذا كان يجب أن يكون. السيئ فى الأمر أنه لم يخطر ببال أحد من عائلتى أن يذهب لمحل أدوات مدرسية ليسأل كم ثمن المسطرة. لقد تكسرت بشكل سريع وهو ما يفترض أنها غالية الثمن وأن أفضل حل سيكون شراء خشبة مستديرة من محل نجارة وأن أشتغلها بنفسى حتى تبدو أقرب ما يكون لمسطرة حرف تى حقيقية. وهكذا انتهى الأمر. حسنًا كان أم غير ذلك، لم يتدخل أبى و لا أمى فى الأمر. وخلال أسبوعين تقريبًا، فى ظهر السبت والأحد، بالسكين فى قبضة يدى، كالمحكوم عليه، كنت أسحج الخشبة الملعونة، أسنها، أسنفرها،

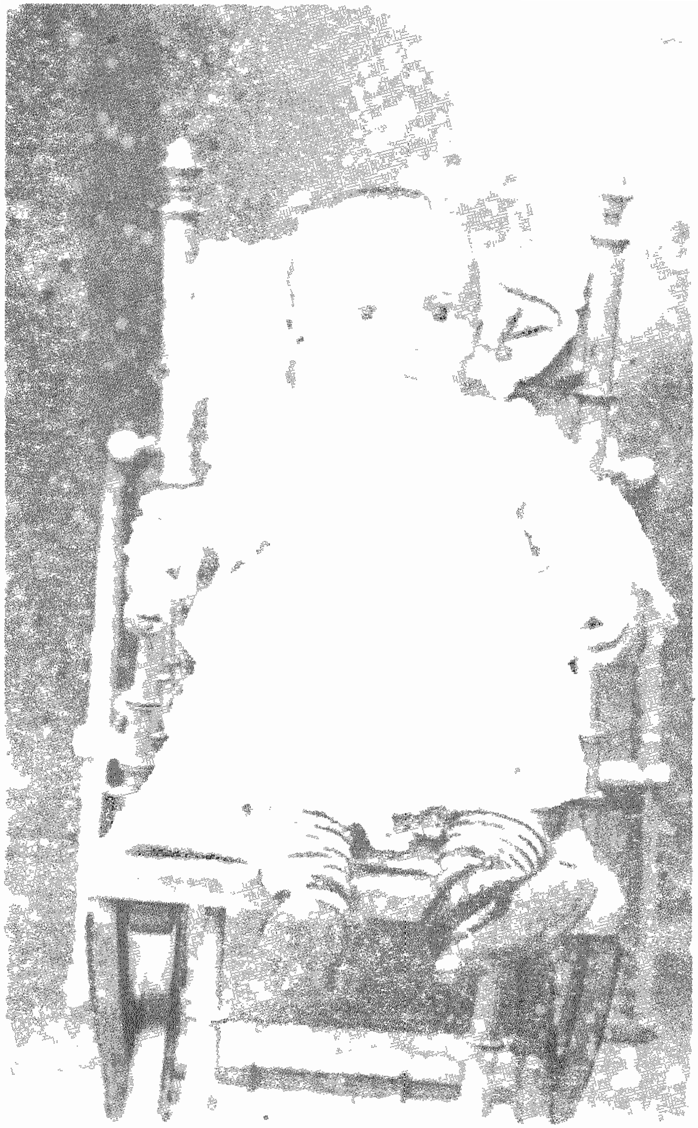
ألمعها. وقد فادتنى الخبرة التى اكتسبتها فى أزينهاجا فى استخدام العدد. لم يخرج العمل تاما كما يقولون، لكن المسطرة شغلت مكان المسطرة المهشمة بجدارة، بقبول من الإدارة و ابتسامة متفاهمة من المدرس. كان يجب أن يضعوا فى الاعتبار أن تخصصى المهنى هو صناعة أقفال ميكانيكية و ليس النجارة .

مات جوزيه دينيس شابًا. كانت قد انتهت سنوات الطفولة الذهبية وصار كل منا يبحث عن لقمة العيش، وذات يوم ، بعد مرور الزمن، عندما كنت فى أزينهاجا، سألت الخالة الفيرا : "ماذا عن جوزيه دينيس؟". فأجابتنى بكلمات مختصرة : "جوزيه دينيس قد مات ". هكذا كنا، مجروحين من الداخل، قاسين فى ظاهرنا. والحياة دائما كما هى، نولد الآن، نعيش بعده، ثم يأتينا الموت فى النهاية، فالحياة لاتستحق كل هذا العناء. جاء جوزيه دينيس وذهب، زُرفت بعض الدموع وقت وفاته، لكن الحق أن الناس لاَ تستطيع أن تقضى حياتها باكية على أمواتها. أريد أن أعتقد اليوم أن أحدًا لن يتذكر جوزيه دينيس لولا كتابة هذه السطور. أنا الوحيد الذى أستطيع أن أتذكر عندما كنا نصعد فوق درجة الحصاد ونتجول باتزان مفقود فى حقل القمح من جانب لآخر، مشاهدين السنابل المحصودة ومغطين أنفسنا بالغبار. أنا الوحيد الذى أستطيع أن أتذكر تلك البطيخة المتعجرفة ذات القشرة الخضراء التى أكلناها على ضفاف نهر التاجو، حقل الشمام داخل نفس النهر، فى واحدة من

ألسنة الأرض الرملية تلك، التى أحيانًا تتسع، و التى يتركها الصيف مكشوفة مع ندرة تدفق الماء. أنا الوحيد الذى يمكن أن يتذكر خشخشة السكين، الشرائح الحمراء باللب الأسود، الحصن (الذى يسمونه فى أماكن أخرى القلب والذى كان يكّون فى المنتصف مع القطوع التالية) لم يكن بمقدور السكين قطع المحور الطولى للثمرة) العصير الذى يتدلى أسفل رقبتنا حتى صدرنا. وأنا أيضا الوحيد الذى يستطيع أن يتذكر تلك المرة التى كنت فيها خائنا لجوزيه دينيس. كنا نسير مع الخالة ماريا الفيرا لنجنى كيزان الذرة المنسى، كل منا فى طريقه، بجواله المعلق فى رقبته، حاصدًا الكيزان التى تبقت فى الجذع بسبب الإهمال عند الحصاد العام، وهنا رأيت كوزًا كبيرًا فى طريق جوزيه دينيس فالتزمت الصمت حتى أرى إن كان سينتبه لوجوده أم سيعبر غافلا. عندما، ضحية لقامته القصيرة، عبر غافلا، ذهبت أنا وقطفته. كان غضب المسكين منهوب الحق جديرًا بالمشاهدة، لكن الخالة ماريا الفيرا و ناضجين آخرين كانوا بالقرب من الواقعة أعطونى كل الحق، فلو كان هو قد رأى الكوز ما كنت أنا أخذته منه. لكن الأمر التبس عليهم جميعا. فلو كنت كريمًا لأعطيته كوز الذرة أو لقلت له بكل بساطة: "جوزيه، انظر لما يقع أمام عينيك ". الذنب كل الذنب يقع على المنافسة الدائمة التى كنا نعيش فيها، لكننى أشك فى أن يكون

ثقل هذا الكوز، يوم القيامة، عندما يضعون حسناتى و سيئاتى فى الميزان ، هو ما سيقذف بى فى الجحيم...

على مسافة قليلة من حديقة جدى كانت توجد أطلال، كانت تلك الاطلال هى ما تبقى من زرائب قديمة للخنازير . كنا نطلق عليها زرائب دى فيجا وأنا كنت أعتاد عبورها عندما كنت أريد أن أختصر الطريق لأعبر من شجرة زيتون لأخرى. ذات يوم ، لابد أن عمرى وقتها كان ستة عشر عامًا، عثرت على امرأة بالداخل ، واقفة ، بين الخضرة، تهندم جيبتها، ورجل يزرر بنطلونه . أدرت وجهى عنهما، سرت فى طريقى ورحت أجلس على سياج فى الطريق، بعيدًا، بقرب شجرة زيتون كنت قد شاهدت سحلية خضراء على جذعها من عدة أيام مضت. بعد عدة دقائق شاهدت المرأة تعبر شجرة الزيتون المواجهة. شبه مهرولة . بعدها خرج الرجل من الأطلال، اقترب منى (لابد أنه كان عامل جرار وعابر سبيل، تم التعاقد معه لعمل عمل خاص) وجلس بجانبى. قال ": امرأة نظيفة ". لم أجبه. كانت المرأة تظهر وتختفى بين جذوع شجر الزيتون ، وكانت تبتعد فى كل مرة . " تقول إنك تعرف زوجها وستبلغه ." لم أجبه مرة أخرى. أشعل الرجل سيجارة ، أطلق نفسين، بعدها انزلق من السياج وودعنى: " سلام". فأجبته:" سلام ". كانت المرأة قد اختفت كلية. وأبدًا لم أر مرة أخرى السحلية الخضراء .



هذا هو فرانسيسكو الذى لم أستطع أن أسرق صورته . عاش قليلا جدًا، من يدرى ماذا كان يمكن أن يكون لوعاش أكثر. أحيانا أعتقد أنه لو كان قد عاش ، لبذلت كل ما فى وسعى لأهبه الحياة .



عمرى ست سنوات وأنا فى شرفة الجزء الخلفى للبيت الواقع بشارع فيرناو لوبيس. لو لم تخنى الذاكرة ، كان بجانبى أنطونيو باراتا و زوجته، لكن كان يفصل بيننا حاجز شديد. على مستوى العلاقات كان أبى دائما واضح الأفكار: عندما تنتهى الصداقة، تنتهى أيضًا الصور.



هذه الصورة تنسب لفترة التعليم الابتدائى أعتقد أنها ثانى صورى، إن لم أعد الصورة التى اختفت، تلك الصورة التى كنت فيها مع أمى عند باب محل الحبوب، كانت ترتدى ملابس حداد قاتمة بسبب موت أخى فرانسيسكو ، وأنا كنت بوجه حزين .



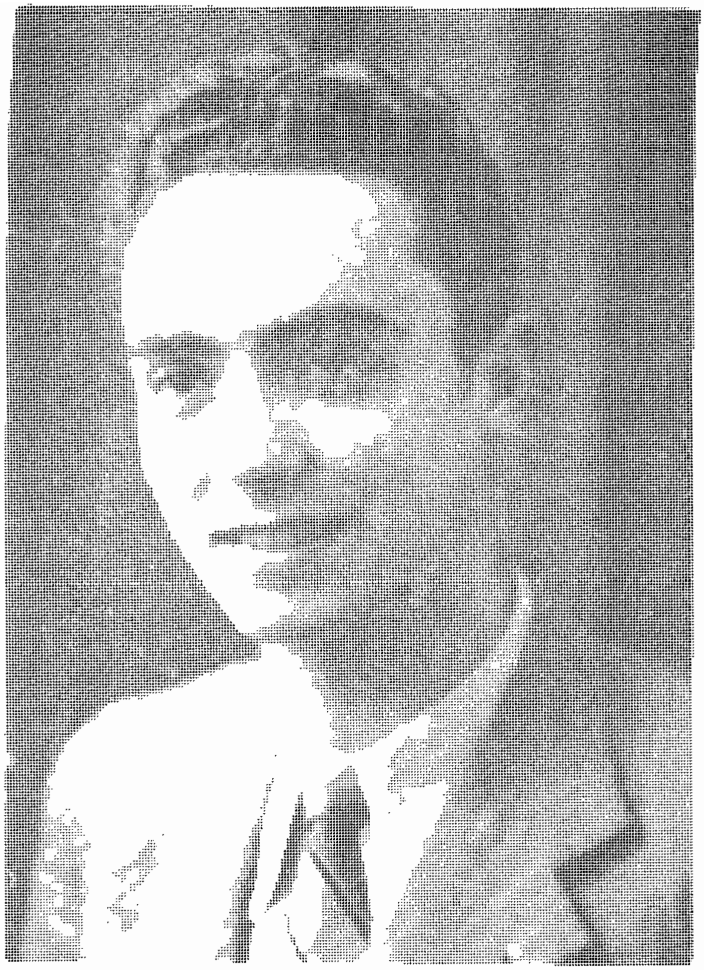
هنا ألبسونى ربطة عنق و شعار بنفيكا فى طية صدر البدلة . جعلنى أبى عضوًا فى النادى وكان يأخذنى معه للمباريات المقامة فى ستاد اموريراس القديم . كانت رغبته هو أكثر منها رغبة منى. كنت أتسلى، لكن بلا تعصب .



هذه الصورة تبرز ملامح منتصرة، نصف ضحكة تبدو واثقة من نفسها. أظن أننى أخذت هذه الصورة بعد امتحان الصف الرابع، عندما كنت أتمتع مسبقًا بالمسئوليات التى كانت تنتظرنى فى المعهد. لمدة قليلة



ربما كان يجب أن أضع هذه الصورة قبل السابقة. كان وجهى شاحبًا و ضعيفًا، يتناقض مع التعبير الثابت و المسرور فى الصورة السابقة. ما يثير حيرتى هو عقدة ربطة العنق المرتخية بلا شد، كما صارت موضة بعد ذلك.



هذه صورتى و أنا مراهق. الشعار اختفى وأعتقد أننى أتذكر أننى فى هذه الفترة لم أعد أذهب لمشاهدة المباريات. أستعيد ربطة العنق المحكمة التى ستلازمنى طيلة حياتى، حتى اليوم .



فى هذه الفترة كان لى خطيبة . وهذا يلاحظ فى وجهى ...



هذه الصورة فى أزينهاجا. أقف بساقين منفرجتين وبكل حسم أمام الكاميرا . ولأننى لم أكن أعرف كيف أتصرف فى يدى ، قمت بوضعهما فى جيبى. جيوب البنطلون هى ملجأ الخجولين .



هذه هى صورة جدى ، جوزيفا و جيرونيمو .تثير حنانى تلك اليد المستريحة فوق كتف جدتى. لم يكونا شخصين يهتمان بإثارة مشاعر الناس، لكننى أعلم أنهما كانا يتبادلان الحب وحتى هذا العمر كان كل منهما يعشق الآخر .



صورة جدتى وبين ذراعيها أحد أحفادها، لكننى لا أدرى من هو. ربما، من منظره، يكون أحد أبناء خالى مانويل .



لا أعرف ماذا أفعل مع هذا الرجل، فالوجه وجه جدى جيرونيمو ، لكن البدلة لا تنتسب له . ربما استلفها من أجل المناسبة من زوج خالتى ماريا دا لوث، التى كانت تعيش حينذاك فى أوبورتو، حيث التقطت الصورة ...



كانت أمى غاية فى الجمال. هذا ليس رأيى، وإنما ما تقوله الصورة.



كان كلاهما جميلا. كانت أمي حاملا في أخي فرانسيسكو. سأولد أنا بعد ذلك، لكن لا صورة لي.



هذه صورة أبى، كان مساعد شرطة حينها . كان
كما كانوا يقولون وقتذاك صورة رجل مهيب .



كم هى جميلة .



مـرت السنون وربما تكون هذه آخـر صـورة لأبى. بالرغم من عبثه لم يكن أبدًا إنسانًا سيئًا. ذات يوم، كنت قد صرت رجلا، قال لى : " أنت، نعم دائمًا كنت ابنًا طيبًا ". فى هذه اللحظة غفرت له كل شىء. لم نكن أبدًا صديقين حميمين.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحِق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٣ - الأنثى كنوع- للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» - قصص - جائزة بن مالامود.

٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي - للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» - رواية - جائزة الجونكور.

٢٥- اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦- الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ - نار و ريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

٢ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جرترود.. بريچتيه كروناور.. جائزة چورج بوشنر الكبرى ٢٠٠٥.

٣ ـ البصيرة.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org eg

الذكريات الصغيرة.. هى السيرة الذاتية لـ "ساراماجو" التى يتناول فيها فترة الطفولة فقط.. إنها الذكريات التى مرت به ونقشت آثارها فى وجدانه، فأسهمت فى بناء اللبنات الأولى فى شخصية الطفل الصغير الذى صار بعد ذلك واحدًا من أهم كتاب العالم.

يقول "ساراماجو" نفسه عن ذكرياته الصغيرة: "هذا الكتاب يحكى عن الطفل الذى كنته، كأفضل وسيلة لأفهم نفسى، وبالرغم من أن هناك من يعتقد أن السنوات الأولى من حياتنا ـ سنوات البراءة ـ هى فترة نعيشها وننساها، فأنا أعتقد عكس ذلك تمامًا".

ويقول أيضًا: "لقد حاولت فقط أن أعطى فكرة واضحة بما فيه الكفاية عن حياة الطفل الصغير الذى تملك زمام أمرى".

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774201822

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦ جنيهات

6 221149 006133